نفحات مِن سورة هود

Puffs from Surat Hud

إعداد

د.عبد الباقي أوسو يوسف

Dr. Abdel-Baqi Oso Youssef

أربيل- العراق

Doi: 10.21608/jnal.2022.234633

الاستلام : ٦/ ٣ /٢٠٢٢ القبول : ٢٥ / ٣ /٢٠٢٢

يوسف ، عبد الباقي أوسو (٢٠٢٢). نفحات مِن سورة هود. ***مجلة الناطقين بغير اللغة العربية*** ، المؤسسة العربية للتربية والعلوم والآداب، مصر، مج(٥)، ع (١٣)، ص ص ٧٥ – ٧٤.

نفحات مِن سورة هود

المستَخلص :

هُوْدٌ عليهِ السَّلامُ منَ الأنبِيَاءِ الأَوَائِلِ الّذِينَ أرْسَلَهمْ اللهُ عزَّ وجلَّ، لإصْلاحِ النَّاسِ، وقدْ جَاءَ بعدَ نُوْحٍ عليهِ السَّلامُ، وهُوَ حَفِيدُ نُوْحٍ. هُودٌ بنُ شَالِحِ بنُ أرفخشد بنُ نُوحٍ. ومِنْ قوْمِ عَاد، وقدْ عَاشَ في مِنْطقةٍ تُسَمَّى الأحْقَافَ، بينَ عَمّانَ، وحَضْرَمَوت. ويُعتَبَرُ منَ الأنبياءِ المُعَمّرينَ، حيثُ عاشَ ٤٦٤ سنَة. وهُنا تكمُنُ خُصُوصيّةُ هذا النَّبِيّ الكَرِيمِ عليهِ السَّلامُ. فهو أوّلُ نبيٍّ بعَثَهُ اللهُ بعدَ الطُّوفَانِ، حيثُ بَدَأتْ الحَياةُ بأناسٍ صَالحينَ، ولا فَاسِد واحِد بينَهمْ، وهمُ الّذينَ كانُوا في السَّفينَةِ الّتِي أرسَتْ بِهم بعدَ الطُّوفَانِ على جَبَلِ الجُوْدِيِّ. وكَانُوْا نحْوَ ثَمَانِينَ شخصاً ولا أحَدَ غَيْرهُم على سَطْحِ الأرْضِ.

Abstract:

Hood, peace be upon him, is one of the first prophets who were sent by God Almighty to reform people, and he came after Noah, peace be upon him, and he is the grandson of Noah **.**Hud bin Shelah bin Arfakhshad bin Noah. And from the people of Aad, and he lived in an area called Al-Ahqaf, between Amman and Hadramawt. He is considered one of the long-lived prophets, as he lived 464 years**.** Herein lies the peculiarity of this noble Prophet, peace be upon him. He is the first prophet sent by God after the flood, when life began with righteous people**.**

مقدمة

هُوْدٌ عليهِ السَّلامُ منَ الأنبِيَاءِ الأَوَائِلِ الّذِينَ أرْسَلَهمْ اللهُ عزَّ وجلَّ، لإصْلاحِ النَّاسِ، وقدْ جَاءَ بعدَ نُوْحٍ عليهِ السَّلامُ، وهُوَ حَفِيدُ نُوْحٍ.

هُودٌ بنُ شَالحِ بنُ أرفخشَد بنُ نُوحٍ. ومِنْ قوْمِ عَاد، وقد عَاشَ في مِنْطقةٍ تُسَمَّى الأحْقافَ، بينَ عَمّان، وحَضْرَمَوت. ويُعتَبَرُ منَ الأنبياءِ المُعَمّرينَ، حيثُ عاشَ ٤٦٤ سنَة.

وهُنا تكمُنُ خُصُوصيّةُ هذا النَّبِيّ الكَرِيمِ عليهِ السَّلامُ. فهو أوّلُ نبيٍّ بعَثَهُ اللهُ بعدَ الطُّوفَانِ، حيثُ بَدَأتْ الحَياةُ بأناسٍ صَالحينَ، ولا فَاسِد واحِد بينَهمْ، وهمُ الّذينَ كانُوا في السَّفينَةِ الّتي أرسَتْ بِهم بعدَ الطُّوفَانِ على جَبَلِ الجُوْدِيِّ. وكَانُوْا نحْوَ ثَمَانِينَ شخصاً ولا أحَدَ غَيْرهُم على سَطْحِ الأرْضِ.

وهذا بيَانٌ بأن الإنسَانَ أصلُهُ صَالِحٌ، وأمّا الفَسَادُ، فهو دَخِيلٌ علَيْه، فهُوَ بحُكْمِ الوِرَاثةِ إنْسَانٌ صَالحٌ مِئةً بالمِئةِ، ويحمِلُ بَراءَةَ صَلاحٍ منَ اللهِ. والفَسَادُ هوَ عَامِلٌ خَارِجِيٌّ مُكتَسَبٌ، وليسَ متأصِّلاً، وبذلك فإنَّ الإنسَانَ ينحَرِفُ من فِطْرةٍ سَليمةٍ إلى اعْوِجَاجٍ مُكتَسَبٍ مِن عَواملَ خَارِجِيَّة. وهذا ما حَصَل مع الإنْسَانَينِ الأوّلَين آدَم وحَوَّاء عَليهِما السَّلام. فقدْ خَلقَ اللهُ آدمَ سَليماً بفطْرةٍ سَليمةٍ، كمَا خَلقَ حوَّاءَ كذلك، لكنَّ العامِلَ الخَارِجِيَّ جَعَلَهُما ينْحَرِفان إلى المَعصِيَةِ، فأصبحَتِ المَعصِيةُ دَخِيْلَةً على الأصْلِ، وأقحَمَتْ نَفسَها عَلى الأصْلِ، لأنَّها لَمْ تَكُنْ مَوجُودَةً فيهما، لأنَّ الاسْتِقامَةَ هيَ أصلُ فِطْرَتِهما.

وبذلكَ فقد لبثَتْ الاسْتِقامَةُ هيَ أَصْلُ فِطْرَةِ كُلِّ إنسَانٍ يُولَدُ مِنهُما على مَدَارِ الزَّمَن. وأيُّ انْحِرافٍ يكونُ مُكتَسباً بِحكْمِ احْتكَاكَاتٍ خَارِجِيّة. ولذلكَ فإنَّ الإنسَانَ عنْدَ التَّوبةِ، لا يُحاسَبُ على ذُنوبِهِ مهمَا تعَاظَمَت بِهِ الذُّنوبُ، حَتَّى لو كانَت شِرْكاً وهوَ أعْظَمُ الذُّنوبُ. ذلكَ أنَّ الإنسَانَ من خِلالِ التَّوبةِ يكُونُ قد عَادَ إلى فِطْرتِه الإيْمَانيَّةِ السَّليمَةِ، وأنكرَ ما قدْ اكتَسَبَ واستغفَرَ ربَّهُ وَتابَ إلَيْه. وهذا ما حَصَلَ مع آدَم وحَواء عليهِمَا السَّلام، فهُما صالِحَان رغمَ المَعصِيَةِ الّتِي ارْتكَبَاها، لأنّهُمَا تبرّأا مِنْها بالتَّوبَة، فمُحِيَتْ منْ صَحِيفَتَيهِما كما لو أنَّهُمَا لمْ يَرتكِبَاها. ولمْ تقْتَصِرْ هذهِ المِيزَةُ لَهُما فقطْ، بَلْ جعَلَها اللهُ منْ حَقِّ كُلِّ إنسَانٍ دُونَ أيِّ اسْتِثنَاء.

[قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ] الزمر٥٣.

إذن: [**يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً**]. مَهمَا كانَتْ ودُونَ اسْتِثنَاء، ولأيِّ إنسَانٍ كَانَ في أيِّ زمَانٍ ومَكانٍ، دُونَ اسْتِثنَاء، في حَالِ أنَّهُ استَغفرَ ربَّهُ وتابَ إليه. لكنَّهُ إذا عَانَدَ واسْتَكبَرَ وكذَّبَ الأنبياءَ والرُّسُلَ، وانتَهَكَ حُدُودَ اللهِ دونَ رَادِعٍ، فإنَّ اللهَ لا يسْكُتُ عنْهُ ولا يتْرِكُهُ فِي فُجُورِه، بلْ يُخْزِيْهِ في الدُّنيَا قبْلَ الأخِرةِ. وهذا هُوَ المِحْوَرُ الرَّئيسيِّ لهذهِ السُّورَةِ الكَريمَة. ولذلكَ سَنرَى بأنَّ الأحْدَاثَ لَمْ تبدَأْ بهُوْد، بلْ بدَأتْ بنُوحٍ. وسَتَأتِي الأحْدَاثُ على نحوٍ تَشْوِيقِيٍّ دَقِيقٍ بحيْثُ تُمهِّدُ لمرْحَلَةِ هُودٍ عليهِ السَّلامُ. ولمْ تكْتفِ السُّورةُ بذلك، بلْ تمْتَدُّ

بشَكْلٍ تَسَلسُليٍّ إلى مَرحَلةِ صَالِحٍ وقَومِهِ ثَمود، ثم ما وقعَ لخَليلِ اللهِ إبراهيمَ، ومِنْ خلالِ ذلكَ إلى وقائعِ حَياةِ لُوطٍ مع قَومِهِ المُنحَرفينَ جِنْسيّاً. ثُمّ تقدّمُ السُّورةُ تغطِيةً لأحداثٍ وقعَتْ مع شُعَيبٍ مَع أهْلِ مَديَنَ. إلى أحْدَاثٍ مع مُوسى. وكلُّ ذلك بدِقّةٍ وتنَوُّعٍ في أشكالٍ وألوانِ المَعَاصِي، وكذلك تَنوّعٍ في أشْكَالٍ وألوَانِ العِقابِ. إلى جَانِبِ بيَانٍ إلى بقَاءِ بابِ التَّوبةِ مَفتوْحاً، فنَرَى بأنَّ اللهَ سُبْحَانَه وَتَعَالَى عندما يُعاقِبُ المُستَكْبِرينَ والفَجَرَة المُصِرّينَ بعنادٍ شديدٍ على الاِسْتكبَارِ والفُجُور، والرَّافِضِينَ قَطعَاً للتَّوبةِ، يُنَجِّي منهم التَّائبينَ.

وتُبيِّنُ السُّورَةُ الكَريمَةُ كيفَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُنجِّي التَّائبَ مِن كَوَارثِ الدُّنيا، ومِنْ أشكالِ الذُّلِّ والخُنوعِ، ويجعَلُهُ عزيزَاً. وكلّما ازدَادَ صَلاحَاً في الدُّنيا، كُلّمَا أعزَّهُ اللهُ أكْثَرَ بنِعمٍ مادّيَّةٍ ومَعْنَويَّةٍ. ولا يقْتَصِرُ ذلكَ على الدُّنيا فَحسْب، رغمَ أنَّ اللهَ يُعطِيهِ أكثَرَ من اسْتحْقَاقِه نَظِيرَ صَلاحِه، بلْ ويُجنّبُهُ أيَّ لونٍ مِن ألوانِ الأذَى فِي الأخرةِ

[**لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**] الأنبياء١٠٣.

ويُكرِمُه اللهُ بدرَجَاتٍ مُتقدّمَةٍ في الجَنَّة.

مَع هذِه السُّورَةِ الكَريمَةِ نُدرِكُ بأنَّ التَّوبةَ المَفتُوحَةَ هِيَ مِنْ نِعَمِ اللهِ الكُبرَى على الإنسَانِ، والظَّالِمُ لنَفسِه، هُو ذاكَ الذِي يَلبَثُ مُعانِداً ومُستَكْبِراً أنْ يسْتغْفِرَ اللهَ عَمَّا قد اقتَرَف. وهذِه الصَّفحَةُ الجَديدَةُ من حَيَاتِهِ قدْ جعلَها اللهُ تَعَالَى حَقّاً لَه، لكنَّهُ يسْتكْبِرُ ويسْتكْبِرُ ويسْتكْبِر، ويَنْتَهِكُ ويَنْتَهِكُ ويَنْتَهِكُ بِعِنادٍ شَديدٍ.

معَ أحداثِ هذهِ السُّورةِ الكريمَة، نرَى كيفَ أنَّ اللهَ جَلّ شَأنُه، لا يُعاقِبُ أحَدَاً قبلَ أن يوْصِلَ لهُ مَن يدْعُوه إلى الصَّلاحِ، ويُمْهِلَه الإمْهالَ تِلْوَ الإمْهالِ، ثم يُقلِّبُ عليه الأحْوالَ لعلَّهُ يتَّعِظُ ويتراجَعُ عنْ ظُلْمِهِ لنفْسِه. فمثلاً منَ الغِنَى إلى الفقْرِ، أو مِنَ الفَقْرِ إلى الغِنَى. من المَرَضِ إلى العَافِيَةِ، أو مِنَ العَافيَةِ إلى المَرَضِ. وكلُّ هذهِ التَّقلّباتِ نَراها منْ خِلالِ الأحدَاثِ الَتي يقُولُها اللهُ عزَّ وجلَّ لرَسولهِ عليهِ الصّلاةُ والسَّلامُ. ويبقَى ذلكَ مَفتُوحاً للبشريَّةِ جَمعَاء لتتَّعِظَ بِه.

فهَا هُوَ القُرآنُ المَجِيدُ، كِتابُ الإصلاحِ الأوَّلِ بينَنا، وقد حَفِظَهُ اللهُ بعِنايتِهِ منْ أيِّ تحْريفٍ، فلا تَسْتَطِيعُ يَدٌ أنْ تمتَدَّ لتُحرّفَ كلمَةً واحِدَةً مِنْه. كتابٌ خالِصٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى بكلِّ سُورَةٍ منْ سُوَرِه، بكلِّ آيةٍ مِن آيَاتِه، بكلِّ كلمةٍ منْ كَلمَاتِه، بكلِّ حَرفٍ مِن حُرُوفِه.

كذلكَ في هذهِ السُّورةِ الكَرِيْمَةِ بيانٌ بألّا يغتَرَّ الإنسَانُ بنُفُوذِه ومَنصِبِه، أو أمْوالِه، أو رِجَالِه، أو أوْلادِه، أو قُوّتِه. فَقدْ كانَ قوْمُ هُودٍ عَمالِقَة، وكانتْ أبْدَانُهمْ قويَّةً، وقَاماتُهُم طَوِيلةً. وكانُوا يتَمتَّعونَ بالعَافيةِ والغِنَى، ورَغمَ ذلكَ عِندمَا أصَرُّوا على الكُفْر، أذلَّهُم اللهُ كما تُبيِّنُ السُّورةُ بالتَّفاصِيْلِ.

سُورَةُ هوْدٍ هيَ السُّورَةُ الثَّانيَةُ الّتِي سُمِّيَتْ باسْمِ نبيٍّ بعدَ سُورةِ يُونُس. وتَرتِيْبُها في المُصحَفِ الشَّريفِ، السّورةُ الحَاديةُ عَشَرة، وهذا بذاتِهِ تَرتيبُ نزُولِهَا أيضاً، حيثُ أُنزِلَتْ بعدَ سُورةِ يُونس كمَا جَاءَ في بعضِ أسْبابِ النُّزولِ.

وهيَ سُورةٌ مَكِيّةٌ منَ المئين، ويُروَى عن ابنِ عبّاس أنَّ الآية١١٤ مِنْها مَدنيَّة. تَقعُ في ١٢٣ آيةٍ منْ الجُزءِ الثَّالثِ عشَر في المُصحَفِ.

وزمَنُ نزولِها كانَ نحْوَ السَّنةِ العَاشِرَة للبِعثَةِ النَّبويَّة الشَّريفَة، وكانَتْ الدَّعْوَةُ تَمرُّ بظُروفٍ بَالغَةِ الصُّعوبَةِ. حيثُ تُوفِّيَ عمُّ النَّبيِّ صَلَّى اللّهُ عليهِ وسَلَّمَ أبو طالب بنُ عبدِ المطّلبِ الّذِي كانَ يُدَافِعُ عنه، كمَا تُوفِّيتْ أمُّ المُؤمِنين الأُولَى خَديجَة رَضِيَ اللّهُ عَنْها. وكانَتْ زوجَتُهُ الّتِي وَقفَتْ إلى جَانبِه، أوَّلُ امْرأةٍ آمَنَتْ به، وآزَرتْهُ بمالِها وبِما كانَتْ تتَمتَّعُ مِنْ مَنْزِلةٍ اِجتِمَاعيَّة في مَكّة، وهيَ أمُّ بناتِه. وفي تلكَ المَرحَلةِ الصَّعبَةِ، لمْ يعُدْ النَّاسُ يدْخُلونَ الإِسْلامَ إلَّا نادِراً حَتَّى إنّ النّبي عليهِ الصّلاةُ والسَّلامُ ذهبَ إلى الطائفِ يدعُو أهلَها للإِسْلامِ، فكذّبُوهُ أيضاً.

هُنَا وفِيْ هذِهِ المَرحَلةِ نَزلَتْ سُورةُ هُود، وهيَ مِنَ السُّوَرِ القُرآنيَّةِ الّتي تُركّزُ على الصَّبرِ في مُواجَهةِ الصُّعوبَاتِ. والآيَاتُ في السُّورةِ دَقيقَةٌ وهيَ تُرْشِدُ إلى كيفيَّةِ تنمِيَةِ طَاقَةِ الصَّبرِ عِندَ الإنسَانِ في الشَّدائِدِ، وبذلك تُبيِّنُ كيفَ أنَّ عدَمَ الصَّبرِ يُفاقِمُ الشِّدّة. والسُّورَةُ المَلِيئَةُ بالإِرْشَادِ الإلهِيّ، تُدهِشُكَ بأَياتِها وأنتَ ترَى كيفَ أنَّ ما تقولُهُ يتحَقَّقُ في هذهِ الظُّرُوفِ الشَّديدَةِ التي تعيشُها فيْ وقتِنَا الرَّاهِنِ غالبيَّةُ الدُّولِ الإِسْلاميَّة.

فقد ارتَدَّ البعْضُ في هذِه الشِّرذِمَةِ عَن الإِسْلَام، وبعضٌ استَسلَمَ لإدمَانِ المُخدّراتِ، والبَعضُ انتَهَى إلَى جَمَاعَاتٍ مُتطَرِّفةٍ، والبعضُ إلى مُمَارَسَةِ العنْفُ بشَكلٍ فَردِيٍّ مثْلَ الاختِطَافِ، والاغْتِصَابِ، وارتِكَابِ جَرائِمَ مُرَوِّعة. أو مُمَارسَة العُنفِ بشكْلٍ جَماعِيٍّ في حُشُودِ النَّاسِ منْ خِلالِ التَّفْخِيخِ والتَّفجِيرِ في أماكِنَ عَامَّةٍ. كذلكَ بعضُ التُّجَّارِ مِن خِلالِ الاحْتِكَارِ ورفْعِ الأسْعَار، أو بَعضِ النَّافِذِينَ من خلالِ التَّلاعُبِ بأسعَارِ العُملَاتِ. أو من خِلالِ اخْتِلاسِ الأمْوَالِ وإيدَاعِها بأسْمَائِهم في مَصَارِفَ خَارجَ بُلدَانِهم، أو شِراءِ عَقارَاتٍ بَاهظَةٍ في تلكَ البُلدَانِ. أو بعضِ الأنظِمَةِ من خلالِ الاعْتقَالَاتِ، والإغتِيَالاتِ، والقَصفِ. أو تَفشِّي السَّرِقة، والرَّذيلَةِ، والمُجُون، والاحْتِيَال، والكَذِب، والرّشَاوى. ممّا أدّى إلى وهْنٍ كبيرٍ في الأنْظِمَةِ الحَاكِمَة، نتجَ عنْه فَلَتانٌ أمنِيٌّ، فغدَتْ تلكَ الأنْظمَةُ الإِسْلامِيَّةُ تَسْتَجدِي غيرَ المُسْلِمين لدَعمِها بالأسْلحَةِ، كما أصبحَت أَحْزَابٌ شَعبيَّةٌ مُسَلَّحةٌ تسْتَدعِي غيرَ المُسلمِينَ لتزْوِيدِها بالأسْلحَةِ. فتَمَخّضَتْ من ذلكَ مِيْليشِيَّاتٌ قِتَاليّةٌ أقْحَمَتْ على نفسِها أسْمَاءً إسلاميَّة، إحْدَاها تُكفّرُ الأخرَى لتَتحوَّلَ البِلادُ إلى سَاحَاتِ قِتالٍ، وحُروبٍ أَهليَّة، ونزيفٍ دَاخلِيٍّ، وتَهجِيرٍ، وحِصَار، ومَا إلى ذلكَ مِمّا يؤكّدُ بأنَّ عَدَم الصَّبرِ يؤدِّي إلى تفاقُمِ تَداعِيَاتِ الشَّدَائِدِ والأزَمات. وأنَّ أفضَلَ عِلاجٍ لذلكَ هو التَّحَلّي بالصَّبرِ، وتَوَخِّي ردّاتِ الفعْلِ، وعدمُ التَّسرُّعِ، وضبْطُ النَّفسِ، والاسْتعانَةُ باللهِ عزَّ وجلَّ، والاتِّكَالُ عليه، والدُّعَاء .

فإذن، السُّورةُ هُنا تُعَزّزُ الصَّبرَ لدى النَّبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلَامُ، وهوَ في ذُرْوَةِ الشِّدّةِ والأزْمَةِ، وذلكَ مِن خِلالِ ما تَرْوِيهِ لهُ من أَحْدَاثٍ وقعَتْ مع رُسُلٍ من قَبلِه، وكيفَ

أنَّهُم بالصَّبرِ والاتّكالِ على اللهِ، لبثُوا في مَعْنَويَّاتٍ عَاليَةٍ حَتَّى وَهُم في ذُروَةِ تلكَ الشَّدائدِ والأزَمَاتِ.

فتأتي السُّورةُ الكَريمةُ بقرائِنَ دامغةٍ تبيِّنُ من خِلالِها كيفَ أنّ الصَّبرَ رافعٌ للمَعنَويَّاتِ، وكيفَ أن التَّسرُّعَ مُحبِطٌ لها. وهذِه قاعِدَةٌ إنسَانيَّةٌ عَامّةٌ سَواء للمُسلمِينَ، أو لغَيرِهِم. فقد يتسرَّعُ الإنسَانُ المُؤمِنُ دونَ أنْ يصْبِرَ ويتّكِلَ على اللهِ في مُواجَهةِ شِدّةٍ ما، أو أزمةٍ ما. ونَظيرُ ذلك قد يَصْبرُ غيرُ المُؤمِنِ أيضاً، لكنَّ الفارقَ بين صَبرِهِ وصَبْرِ المُؤمِنِ أنَّ المُؤمِنَ يصبِرُ على قَاعِدةٍ إيمانيَّةٍ مُتّكِلاً على اللهِ، ومُؤمِناً بأنَّ اللهَ يُنصِفُهُ، وهذا أمرٌ غايةٌ في الأهمّيَّةِ لأنَّ صَبرَ المؤمِنِ يتيحُ لهُ سَكينةً نفسيَّةً، وأمْنَاً داْخِليَّاً. في حينِ أنَّ غيرَ المُؤمِنِ يصْبرُ على قاعِدَةٍ إلحَاديَّة، وبذلكَ لا يشْعُرُ بأنَّ الإلحَادَ سيُنصِفُه، وبالتَّالِي لا يُحقّقُ لهُ الإلحادُ سَكِينةً نفسيَّةً أو أمْناً داخِليَّاً. فيكونُ بذلكَ في حَالةِ انتِظَارِ بعضِ الظُّرُوف، لأنّهُ لا يوْجَدُ لديهِ ما يثِقُ به، أو أنَّهُ قادرٌ عَلى إنصَافِه، فهوَ صبرٌ في انتِظَارِ مُصادَفَاتٍ فحسْب. وهذا لا يُحقّقُ لهُ سَكينةً نفسيَّةً ولا أمْنَاً دَاخِليَّاً. فيكُونُ بذلكَ مَلغُومَاً بالصَّبرِ، وهذا ما يجعَلُهُ مُضطَرِباً في صَبرِه، في حينِ أنَّ المُؤمِنَ يكونُ مُسْتكِيْنَاً بالصَّبْرِ. وهذا مَا يجْعلهُ مُسْتَأنِساً في صَبرِه.

الإيمانُ هنا هو شُعورُكَ بأنْ ثمّةَ قوّةً إلهيَّةً قادِرةً علَى كلِّ شَيءٍ، تُؤَازِرُكَ، وهي مَعَك ولا تَغفَلُ عنْكَ طَرفَةَ عَينٍ.

تُرشِدكَ السُّورةُ الكَريمَةُ إلى مَداخِلِ الصَّبرِ الحَقِيقيِّ، لتَفْقَهَ تفاصَيلَ دقيقَةً في عالمِ الصَّبرِ لمْ تكُنْ تفْقَهُها منْ قَبل، وكيفَ أنَّكَ إذ ذاكَ، تقطِفُ مِنَ الصَّبرِ ثِمَارَاً يانِعةً. وعلى هَذا النَّحْو، تسْتَشْعرُ وأنتَ تقرَأُ آياتِ السُّورةِ الكَريمَةِ، بلذَّةٍ تلقِّي قَبسَاتٍ اسْتِنَاريّةٍ تُبدّدُ ظُلُمَاتٍ كانَتْ تُعَشْعِشُ في داخِلِكَ.

البابُ الأوّل : إحكامُ القرآنِ وفِصالُه

[١] [الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ]

كما بدَأتِ السُّورَةُ السَّابِقَةِ بهذه الحُرُوفِ، تبْدَأُ هذهِ السُّورَة كذلكَ. لكِنْ هلْ المَعنَى هوَ نفسُهُ رَغمَ أنَّ الحُروفَ هيَ نفسُها؟

هُناك: [**الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ**].

وهُنا: [**الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**].

إذن، يُعيدُكَ القرآنُ إلى [**الر**]. لكِنْ بمَفهومٍ جَديدٍ مَبنيٍّ عَلَى المَفهومِ السَّابِق. وهذا كلُّهُ مُبنيٌ علَى ما سَبقَ مِن سُوَرٍ اسْتُهِلَّتْ بحُروفٍ مُتَقطّعةٍ، سَواءً أشَكَّلَتْ آيةً مُسْتَقلّة، أو كانَتْ جُزءاً من آيَةٍ.

ونحنُ الآنَ مَع السُّورَةِ السَّادِسَة الّتي تُسْتهَلُ بحُروفٍ مُتقَطّعةٍ.

على هَذا النحْوِ يبقَى القُرآنُ مُتمَاسِكاً ومُتعَاضِداً مع بعضِهِ البَعْض، وبذلكَ فإنَّ انتِهَاءكَ من قرَاءةِ سُورَةٍ، لا يجْعلُكَ تشعُرُ بأنّكَ خَرجْتَ مِنَ القرآنِ، بلْ تشْعُرُ بأنَّ ثمَّةَ ما بَقيَ. وعندَما تسْتَكْملُ القراءَةَ وتنتَهِي بآخِرِ سُورَةٍ، مَهما كانَ الوَقتُ الذي أمضَيْتَهُ في قِراءَتكَ الختميَّة، عندَ ذاك أيضَاً، لا تشْعرُ بأنَّ عَلاقتَكَ القرائيَّةِ انتَهَتْ بالقُرآنِ، بل تبقَى تَتُوقُ لأَجْواءِ، وأحْدَاثِ، ووَقَائِعِ، وكلِماتِ، وعِبَرِ، ومَوَاعِظِ، وحِكَم، وأمْثالِ، وأحْكَامِ القُرآنِ.
وبذلكَ فكلّمَا تختُمُ مَرّةً جَديدةً، يُزيْدُكَ القرآنُ انفِتَاحَاً على قَبسَات جَمَالِه، وتَوقَاً إلى مِسْكِ رَحَابَتِه. وفي كُلِّ قراءَة يهَبُكَ مَاْ لمْ يَهبْكَ إيَّاهُ في سَابِقَتِها.

وهذا ما يجعَلُ مَشَاعِرَ الحُبِّ فيْ قلبِكَ تُورِقُ نحْوَ القُرآنِ، فَتُحِبُّ القُرآنَ، ويحِبُّكَ اللهُ في حُبّكَ للقُرآنِ. ذلكَ أن القُرآنَ كتَابُه العَزيزُ، وهُوَ جلَّتْ قُدْرتُه وتعاظَمَ شَأنُه، مُتَمثّلٌ في القرآنِ، فعنْدَمَا تُريدُ أنْ تسْمَعَ اللهَ، تلجَأُ إلى سَمَاعِ القُرآنِ سَواءً قِرَاءةً أو اسْتِماعَاً، والاسْتِمَاعُ مُحبَّبٌ كما أنَّ القِراءةَ مُحَبَّبَةٌ. ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ القرآن وكذلك يسمعه. عَن ابن مَسعودٍ رضي اللَّه عنه قالَ: (قال لي النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "اقْرَأْ عليَّ القُرآنَ" قلتُ: يا رسُولَ اللَّه، أَقْرَأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قالَ: "إِني أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي" فقرَأْتُ عليه سورَةَ النِّساء، حتى جِئْتُ إلى هذِهِ الآية: [**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيداً**] النساء٤١. قال: "حَسْبُكَ الآن" فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا عِيْناهُ تَذْرِفانِ)[1]. وكانَ الصَّحَابةُ الكِرامُ رِضْوانُ اللهِ عَليهم يقْرَؤونَ القرآنَ ويسْتَمعُون إليهِ.

فعندَمَا تتبرَّكُ عيْنَاكَ بقراءَةِ كلمَاتِ اللهِ جلَّ شَأنُه، ينْتَابُكَ شعورٌ بأنَّكَ تنظُرُ إلَى عَظمَتِه وهوَ يُخَاطِبكَ أيْنمَا كُنتَ. فإذَن، ينْتَابُك شُعورٌ بأنكَ تنْظُرُ إلَى اللهِ، وأنتَ تنظُرُ إلى كَلِماتِه المُقدَّسَةِ التِي تقرؤها، وهذا ما يُحقّقُ لكَ حَالةَ الخُشُوعِ.
كذلكَ الأمرُ عندَما تتبرَّكُ أذُنَاكَ بالاسْتِمَاعِ إلى كَلمَاتِ اللهِ جلَّ شأنُه، ينْتَابُكَ شُعورٌ بأنَّك تسْتَمِعُ إليه، وأنتَ تسْتَمِعُ إلى كَلمَاتِه المُقَدَّسَةِ المُوَجَّهةِ إليك: [**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**] الأنفال٢.

ويبقَى هذا عَامَّاً في كلِّ كَلمَةٍ، وكلِّ حَرفٍ منَ القُرآنِ المَجِيدِ.
[**الر**]. تقرؤها بشَكْلٍ مُتقَطعٍ حَرْفَاً حَرْفَاً، تَشْكِيلاً تَشْكِيلاً: أَلِف، لَام، رَاْء.
فهذا هُو المِفْتَاحُ الذِي تدْخُلُ بهِ إلى رحَابَة آياتِ السُّورةِ الكَريمَةِ. فأحْيانَاً يكونُ المِفتَاحُ حَرفَاً، وأحْيانَاً كلمةً، وأحْيانَاً حُرُوفاً مُتَقطّعةً، وأَحْيانَاً جُملةً.
فهذا [**كِتَابٌ**]. قُرآنٌ [**أُحْكِمَتْ**]. أتْقِنَتْ وأُحسِنَت [**آيَاتُهُ**]. بانْتِظَامٍ.

---

١ صحيح البخاري

[**ثُمَّ**]. بعدَ أنْ أتْقنَتْ وأُحسِنَت [**آيَاتُهُ**] بانتِظَامٍ: [**فُصِّلَتْ**]. وُضِّحَتْ بدقّةٍ بلِيغةٍ، وأُنزِلَ آيَةً، آيَةً، سُورةً، سُورَةً بشكْلٍ مُفصَّلٍ للبَشَريّةِ جَمعَاء في كلِّ زَمَانٍ ومكان. ومَا مِن جِيلٍ بشريٍّ قَط على مَدَارِ التَّاريخِ البَشَرِيِّ، إلَّا ويجِدُ فيهِ تفَاصِيلَ وَاقِعِ حيَاتِه الجَدِيدَة وَفقَ المُنْجزَاتِ الجَدِيدَة. وتَبقَى هَذِهِ الآيَاتُ تنْضَحُ بكلِّ جَديدٍ لكلِّ جِيْلٍ جَدِيدٍ، دُونَ أنْ ينْتَهِيَ جديدُها ما دامَ ثمَّةَ جيْلٌ جَدِيدٌ. وقَدْ [**فُصِّلَتْ**] آيَاتُهُ آيةً، آيَةً على مَقاسِ الأجْيَالِ البشَريَّةِ في كُلِّ عَصْرٍ بشرَيٍّ جديْدٍ. فكُلُّ حِقْبَةٍ بشَريَّةٍ لها حِصَّتُهَا في القُرآنِ، ولذلك تقْرَأ القرآنَ قِرَاءَاتٍ اكتِشَافيّةً لمْ يقرَأْها غيرُها وذلِكَ بحُكْمِ المُنجَزِ البَشريِّ الجَديدِ الّذِي تكُونُ فيْهِ.

و: [**فُصِّلَتْ**]. أي تُعنَى بالتَّفَاصِيلِ الدَّقيقَةِ لكلِّ جِيلٍ.

وفِي القُرآنِ سُورَةٌ باسْمِ (فُصِلَت). جاءَ في الآيَةِ الثَّالثَةِ مِنها: [**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**].

فاللهُ عزَّ وجلَّ وحْدَهُ يعلَمُ أنَّ هَذهِ المُنجَزَات تكُونُ في هَذا العَصْرِ أو ذَاك، لأنَّهُ هُوَ الذِي يَتَفضَّلُ على الإنسان بهذهِ المُكتَشَفَات. ففِي السَّنةِ الفُلانيَّةِ سيَنعمُ على الإنسَانِ بالكَهربَاءِ، وكذلكَ في السَّنةِ الفُلانيَّة بالهَاتفِ، أو بالتَّصويْرِ، أو بالمِذْياعِ، أو التِّلفَازِ، أو الإنتَرنِت، وما إلى ذلكَ. وكلُّ هذهِ المُستَجِدَّات تَكونُ في وقْتِها الدَّقيقِ المُناسِبِ. ولِنَفْرِضْ علَى سبيْلِ المِثالِ أنَّ اللهَ أنعَمَ عَلى البَشَريَّةِ بالإنترنت في زَمَنِ نوحٍ عليهِ السَّلامُ، تُبيِّنُ الآيةُ بأنّ المُكتَشَفَ لم يكُنْ في وَقتِه الدَّقِيْق. عِلمَاً بأنَّ النُّبوْغَ كانَ مُتاحَاً في أجيَالٍ كثيرةٍ قبلَ آلافِ السّنينِ مِن الجِيلِ الّذِي اكتشَفَ الإنترنت، وكان يمْكِنُ لهُم أنْ يكْتَشِفُوا الإنتَرنت، ولكنْ تَمَّ توظِيفُ نبُوْغِهم في مُستَجِدَّاتٍ كانتْ تتَلاءَمُ مع عُصُورِهم. وما يؤكِّدُ ذلكَ أنَّ الأجيَالَ البَشَريَّة تبْقَى تَنْهلُ من تِلكَ العُلوْمِ والمُنْجَزاتِ الّتي اكتشَفهَا أناسٌ مُنذُ قُرونٍ عَديدَةٍ. وهي لمْ تقِلَّ شَأناً عن كُلِّ المُنجَزَاتِ الّتِي تَحقّقَتْ فِيْ عصْرِنا الحَديثِ. الأَمْرُ الأَخَرُ، فإنّنا نرَىْ التَّدرُّج الدَّقِيقَ في هذِه المُنجَزَاتِ، وبذلك يتَلاءَمُ ويَتَآلَفُ النَّاسُ مع كُلِّ مُنجَزٍ. فَمِنَ المِذْيَاعِ، إلى التِّلفَازِ المَحَلِّي، ومنَ التِّلفَازِ المَحَلِّي إلى تلفَازِ الأقْمَارِ الصِّنَاعيَّة، ومِن الآلَةِ الكَاتبَةِ، إلى الحَاسُوبِ، منَ الهَاتفِ الأرْضِيِّ، إلى الهَاتف الجَوّالِ، ومنَ الاسْتمَاعِ بالهَاتفِ إلى الصَّوتِ، إلى المُحَادَثَةِ المُباشَرةِ صَوتَاً وصُورةً، مِن الدّرّاجَةِ الهَوائيَّةِ، إلى الدّرّاجَةِ النَّاريَّة، من الدّرّاجَةِ النَّاريَّة إلى السَّيَّارَة، من السَّيَّارَة، إلى القِطَار، من القِطَار، إلى الطَّائرَةِ. وهَكَذا دَوَاليْك. حيثُ يشعُر النَّاسُ باسْتئْنَاسٍ وتَآلفٍ مع كلِّ هذهِ التَّطَوُّرَاتِ في المُكتَشَفاتِ الجَديدَةِ.

لذلكَ جَاءَ في الآيَة الكَرِيْمَة: [**فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**]. فَهُوَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وتعاظَمَ شَأنُهُ يخبَرُ بالأشْياءِ قبْلَ ظُهورِها، ويخبَرُ بتَركِيبَةِ الأجْيَالِ التي تَتَلاءَمُ وتتَوَافَقُ مع كلِّ مُنجَز، بلْ إنّ كل مُنْجَزٍ تراهُ ضَرُورِيَّاً معَ هذهِ الحِقبَةِ دُونَ تلكَ.

وكلمةُ [**لَّدُنْ**]. بالغَةُ الدِّقَة، وكانَ يُمكِن القولُ: [**فُصِّلَتْ مِن**] عند[**حَكِيمٍ خَبِيرٍ**]. لكنْ عندَها كَان سيَقتَصِرُ على معنىً وَاحِد.

فـ [**لَّدُنْ**]. تكتَنِزُ بحُرُوفِها الثَّلاثَةِ بمَعانِي الحَنانِ، والمَحبَّةِ، والعَفْوِ، والخَيرِ، واللِّينِ، والتَّسَامُحِ، والعَطَاءِ.

[**رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**] آل عمران٨.

[**هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ**] آل عمران٣٨.

[**إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً**] النساء٤٠.

[**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً**] النساء٧٥.

[**وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً**] الإسراء٨٠.

[**إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً**] الكهف١٠.

[**فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً**] الكهف٦٥.

[**وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً**] مريم٥.

[**أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**] القصص٥٧.

إذَن جَاءَتْ الجُمْلةُ دَقيقَةً في كَلمَاتِها: [**فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**]. فاللهُ عزَّ وجلَّ يخْبَرُ ضعْفَ الإنْسَانِ، فيتجَاوَزُ عنْهُ ويُمهِلهُ الإمْهالَ تِلْوَ الإمْهَالِ حَتَّى ينْضُجَ ويتَّعِظَ ويتُوبَ. وقد تَرَكَ اللهُ بابَ التَّوْبَةِ مَفتُوحَاً أَمَامَ الإنسَانِ مَهما تقدَّمَ عُمْرهُ في المَعَاصِي، وهذَا شَيءٌ [**مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**]. ونرَى ذِكْرَ اسْمَينِ حسنَينِ للهِ عزَّ وجلَّ هُما: [**حَكِيمٍ خَبِيرٍ**]. فلا فَوضَى، ولا صُدَف، وكلُّ شَيءٍ يكُونُ مُفصَّلاً بدقّةٍ [**مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**].

البابُ الثّاني : التّوحيدُ ونَبذُ الشِّرك

[٢] [**أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ**]

فَهذا الكِتابُ الّذِي [**أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**]. يُرشِدُكُم: [**أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ**]. وتُقلِعُوا عَن عِبادَةِ ما دُون الله، لأنّ في ذلكَ نَفعُكُم في الدّنيا، والآخِرَة، وما دُون ذلكَ أذاكُم في الدُّنيَا، والآخِرَة.

[**إِنَّنِي**] رسولٌ [**لَكُم**] وليسَ علَيكُم [**مِّنْهُ**] منَ اللهِ الّذي أرسلَنِي لخَيرِكُم، وصَلاحِكُم، وتَحسِينِ حَياتكُم. [**نَذِيرٌ**] بِمغبّةِ عَواقِبِ الكُفر [**وَبَشِيرٌ**]. بثَوابِ الإيمَان.

البابُ الثّالث : بينَ الاستغفَارِ والتّوبَة

[٣] [وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ]

[**وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ**].

الواو، عَطَفَتْ الآيةَ على سابِقَتِها. أي: [**أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ**]. الآن: انتَفِعُوا بهذا الإنذار[**وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ**].

وبهذهِ البِشارَة[**ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ**].

إذن، الاستِغفَارُ هوَ طَلَبُ المَغفِرةِ منَ اللهِ عَمَّا ارتكَبتَ مِن آثامٍ سَابِقة. وهذا يكونُ من خِلالِ الكَلام. لكِنّهُ لا يكفِي لأنّ الكلامَ يحتاجُ إلى تَفعِيل، والتّفعِيلُ هَا هُنا يكمُنُ في التّوبةِ. والتّوبةُ هي عَدمُ الإصْرارِ على المَعاصِي الّتِي يَرتكِبُها الإنسانُ. فمثلاً رجلٌ يَزنِي مع امرأةٍ، وهيَ تُقيمُ عِندَه، وكُلّما انتَهى من الزّنا معَها، استغفَرَ الله. لكنّهُ يُبقِيها في بَيتِه. مثلاً عندَما يخرُجُ فِي النّهار منَ البيتِ يستغفِرُ الله. ولكنّهُ يَعلمُ بأنّه عِندمَا يعودُ إلى البيتِ سيُمارِسُ معهَا الزّنا.

فهذا الاستِغفارُ لا يكونُ كافِياً، لأنّهُ كلامٌ دُونَ تَفعِيل، رَغمَ أنّهُ يَستغفِرُ عَن ذنوبٍ سابِقَة، ويَندمُ على ارتِكابِها، بَيدَ أنَّهُ لا ينوِي الإقلاعَ عنهَا في الآتِي، بلْ ينوِي الاستِمرارَ فيها.

فهُنا استغفارٌ معَ إصرار، والإصرارُ مفسدةٌ للاستِغفار.

فقالَ تَعالى شأنُه: [**وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ**]. عَمّا اقترَفتُم منْ ذُنوبٍ سابِقةٍ مَهما كانَتْ عَظِيمة، واندَمُوا عليها.

[**ثُمَّ**] - بعدَ أن تـ[**سْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ**] عَمّا قَدْ سَلَف -: [**تُوبُواْ إِلَيْهِ**]. اعزِمُوا على عدَمِ تكرَارِ المَعصيةِ فيما يأتِي، واقطَعُوا كُلّ علاقةٍ بينكُم وبينَ الأسبابِ الّتي تؤدِّي إليها. [**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ**]الشورى٢٥.

فالاستِغفارُ هو نَدَمٌ عَمّا قَد سلَف من مَعصِيَة، ولو قَبلَ دقيقةٍ واحِدَة، فقد أمسَتْ بِحُكمِ السّلَف، ورجاءِ المَغفِرةِ منَ الله.

والتّوبةُ هيَ عَدَمُ الإصْرارِ على الاستِمرارِ في المَعصِية، والعَزيمةُ على الإقْلاعِ عَنها، وقَطعُ كلّ علاقةٍ بينَكَ وبينَ ما مِنْ شأنِهِ أنْ يؤدّي إليها. وفي ذلكَ قولهُ تَعالى: [**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**]آل عمران١٣٥.

عن شداد بن أوس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا

اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ"[٢].

فهذا واللهُ أعلمُ هوَ تَحلِيل: **[وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ]**.

لكِن هذا ليسَ كُلّ شَيء، فقَدْ يعُودُ التّائِبُ الصّادقُ فِي تَوبتِه إلى الذّنب. مثلاً بعدَ عَزيمَتِهِ على عدَمِ العَودة، وفجأةً فِي مَوقفٍ ما، فِي واقعةٍ ما، حَصلَ معهُ شيءٌ مِن الضّعف، وعادَ إلى المَعصِيَة.

هُنا هلْ يكونُ كُلّ شيءٍ قد انتَهى بالنّسبَةِ إليهِ لأنّهُ لمْ يلتَزِمْ بِتَوبتِه، وأنّ بابَ التّوبةِ أُغلِقَ أمامَه ؟

نقُول: لا. لأنّهُ كانَ صَادِقاً في تَوبتِه، لكِن حصَلَ وأنْ عادَ إلى المَعصِيةِ في ظرفٍ ما، أو في مَوقفِ ضَعفٍ ما، أو في وَسوسةٍ ما، فانزلَّتْ قدَمُهُ كَرّةً أُخْرَى إلى بَراثِنِ المَعصِيَة، واقْتَرفَ كبيرةً منَ الكبَائِرِ فِي حُدودِ اللهِ تَعالى، أو حتّى صَغِيرةً. وأنّ اللهَ عزّ وجَلّ لا يَحرِمهُ منَ الاستِغفَارِ والتّوبَة. فبذلكَ يندَمُ علَى المَعصِيَةِ ويَستنكِرُها بِشدّة، ويَستغفِرُ الله، ويُجدّدُ توبتَهُ. ولعلّكَ تَقُول: ولو تكَرّرَ ذلكَ أيضاً؟. الجَواب: أنْ يُكرّرَ الاستِغفارَ والتّوبةَ ما دامَ صادِقاً.

ولو تكرّرَ ذلكَ أيضاً وأيضاً؟ كذلك يُكرّرُ، ويُكرّر، و مهما تكرَّرَتْ المَعصِية، ومهما أسرَفَ على نَفسِه، ألاّ يقنُطَ منْ رَحمةِ اللهِ مادامَ غيرَ مُصِرّ، وما دامَ لا يُشِيعُ المَعصِيةَ، ويَستُر نفسَهُ، ويشعُر بتأنِيبٍ. فالاستِغفارُ لِوَحدِهِ لا يَكفِي، إذا كانَتْ ثمّةَ مُداوَمةٌ على المَعصِيَة، وإصْرارٍ علَيها. فالمُستغفِرُ يكونُ مُنغَمِساً في غِوايةِ المَعصِيةِ رَغمَ أنّهُ كَثيرُ الاستِغفار، بلْ وقد يكُونُ كَثيرَ العِبادَة، أو لعلّهُ يَكونُ قاضِياً شرعِياً، أو مُفتِيَ البِلاد، أو إمامَ مَسجِد، وما إلى ذلكَ مِمّا يُظهِرُ أنّهُ تَقِيّ. لكنّ هذهِ التّقوَى لا تَنفعُهُ رَغمَ أنّها تَبقى لهُ ولا تَضِيعُ عِندَ الله، لكنّ عدمَ مَغفِرةِ الله منْ خِلالِ عدَمِ قُبولِ التّوبَة، كونهَا تَكونُ توبَةً فاسِدةً بسببِ الإصرارِ على المَعصِية، يَجعلُ كفّةَ السيّئاتِ ترجَحُ بكفّةِ الحَسَنات، فلا أحد يدخلُ بعملِهِ الجنّةَ دونَ مَغفِرَة الله. فإذا تَرَكَ الله سبحانه وتعالى، الإنسَانَ يتحمَّلُ وبالَ ذنُوبِه ، سيُمنَى بالخَسارَةِ الفادِحَةِ في الدّنيا والآخِرة، مَهما كانَ مُتقدّماً في درَجاتِ العِبادة. هذا بالنّسبَةِ لِمَنْ لمْ يستمرّ في الذّنُوب، فكيفَ إذا كانَ مُصرّاً عليها، مهما قَدَّمَ من طاعَات. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبي صَلّى اللهُ عليهِ وسلّم: "ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ"[٣].

فعِندَما يَعُودُ التّائبُ ربّه، يكونُ خاشِعاً ومُرَكِّزاً على ما يقُول، لأنّهُ يكونُ في حَضْرَةِ ربّهِ الّذي يَسمعُه. ولكِنْ عندَما يتلفَّظُ لسانُهُ بكلِمَات، وقلبُهُ يكونُ غافِلاً عَمّا يلفِظُ

٢ صحيح البخاري
٣ رواه الترمذي

لسانُه، فَهوَ يكونُ في غفلةٍ ولهوٍ عنِ الدُّعاء. وهُنا إعلامٌ منَ النّبي علَيهِ صَلواتُ اللهِ وسَلامِه: "واعلمُوا أنّ اللهَ لا يتسجيب دُعاءً منْ قلبٍ غافلٍ لاهٍ". فَعلى القلبِ أنْ يتفاعَلَ معَ لَفَظاتِ اللّسان، وهكذا يَخرجُ الكلامُ مِنَ القَلبِ، ويُصدّقُه اللّسَانُ. وما دُون ذلكَ يكونُ لفظاً باللّسان، دُونَ مِصداقيّةِ القَلب.

وهكذا لا ييأسُ الإنسانُ مهما كانَتْ لدَيهِ ذنُوب، ما دامَ لا يلبثُ مُصِرّاً عليها، فقدْ أتاحَ اللهُ لهُ الاستغفارَ والتّوبة: [**وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**]التوبة١٠٢.

إذَنْ: [**وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ**]. وعِندَ ذاكَ يُخبِرُ اللهُ عَزّ وجَلّ: [**يُمَتِّعْكُم** مِن خِلالِ الاستِغفارِ والتّوبَة [**مَّتَاعاً حَسَناً**].

عِندمَا يُمتّعُكَ اللهُ [**مَّتَّاعاً حَسَناً**]. تَستمتِعُ بحياتِكَ مُتعةً حَقِيقيّةً لا يَستَمتِعُ بها سِوَى المُستَغفِرُون والتّائبُون، كَونُها خاصّيةُ اللهِ لعِبادِهِ المُستغفرِين التّائبِين.

والمُتعَةُ تَنقسِمُ إلى قِسمَين: مُتعةٌ إيجابيّة، ومُتعةٌ سَلبيّة. ولذلكَ جاءَ الفِصالُ الدّقِيقُ: [**مَّتَاعاً حَسَناً**]. فهُوَ متاعٌ حَسَنٌ يُحقّقُ الرّاحةَ للنّفسِ والجسدِ معاً، دُونَ أيّ تبِعاتٍ سلبيّة، لأنّها مَكرُمةٌ خالِصةٌ منَ اللهِ سُبحانهُ وتَعالى. فهِي مُتعةٌ حَسنةٌ تُحسِّنُ للإنسانِ مقوّماتِ حياتِه، كونها طبيعيّة حسَّنَها اللهُ وبارَكَها، وهيَ بذلكَ تَزيدُ الإنسانَ حُسناً ورَونقاً، فيظهرُ حُسنُ المَتاعِ ورونقُهُ عليه.

ونظِيرُ ذلك، تُوجدُ مُتعةٌ سلبيّة، وهي مُتعةٌ اصطِناعِيّة يَصطَنِعُها الإنسانُ، وقد يزيّنُها هوَ لنفسِه، أو يُزيّنُها لَه الشّيطان، مثل: القِمارِ الّذي بِمُوجبِه يستمتِعُ الرّابحُ على قدرِ ما يُلحِقُ الخَسارةَ بالآخَرِ الذي يتألّمُ وهو يَخْسرُ. أو الاغتِصابُ، حيثُ يشعرُ المُغتَصِبُ باللذّةِ في حين المرأة تَصرُخُ وتُعانِي. أو المُخدّرات التي يشعُرُ المُتعاطِي معَها بالنشوةِ، ولكنّهُ يتدرَّجُ نحوَ هُوّةِ الإدمَان، ويغدُو فَريسةً لردّات الفِعل، ويفقدُ المقدرَةَ على مُواجَهةِ أيّةِ عقبةٍ صَغيرَة، فيلجأ إلى المُخدّرات. أو بعض النّزعاتِ مثل: الساديّة، التي يشعرُ معها السادِيّ بلذّةٍ وهُو يُسبّبُ الألَمَ لشخصٍ آخَر. أو المازوخية، التِي يَعتقدُ منْ خلالِها المازوخي بأنّهُ ينتَشِي على قَدرِ ما يُذَلّ، أو يُهان، أو يُسَبّ، أو يُضرَب. أو بعض أشكالِ الانحِرافاتِ الجنسيّةِ التِي يَشعُرُ معَها المُنحَرفُ بأنّهُ يُحقّقُ مُتعَة، لكنّهُا تنالُ منْ أعصَابِهِ، ومِن سَوِيّةِ طَبِيعتِه، فَتبدُرُ مِنهُ ردّات فِعلٍ غيرِ طبيعيّة، قد لا يَستَطِيعُ التحكُّمَ بِها في بَعضِ الأوقاتِ. أو النّرجِسيّة، حيثُ يشعُرُ النّرجسِيُّ بنَزعَةِ تضخُّمِ الأنا لدَيه، فيُكثِرُ في حَدِيثِه: أنا..أنا. وهُو يعتَقدُ بأنّهُ يَستمتِعُ كلّما كانَ أنانِياً. أو عُقَدة النّقصِ الّتِي يشعُرُ بالمُتعَةِ وهوَ ينالُ منْ نَجاحاتِ الآخرِين ولا يَعترِفُ بتَفوّقِهم، كونهُ يشعرُ بأنّ تفوّقهُم هو انتقاصٌ لَه، حتّى لو كانَ التفوّقُ ليسَ في مَجالِهِ، بلْ في مَجالاتٍ أُخرَى بَعيدةٍ عن مَجالِهِ. وهذهِ النّزَعاتُ وإن كانتْ العلومُ قدْ تحدّثَتْ عنها، إلاّ أنّها موجودةٌ فِي القرآن. مثل: الشُّح،

تضخّم نَزعةِ الأنَا، الازدِواجيّة، إلحاقُ الأذَى بالآخرِين، إلحاقُ الأذَى بالنّفس، الاحتِيالُ، الضّغِينَة، المِثليّةُ الجِنسيّة، القِمارُ، الطُغيانُ، الاحْتِكَار، وما إلى ذلك.

وإنْ كانَ القرآنُ بيَّنَ هذهِ النّزعاتِ البشريّةِ السلبيّة، فإنَّهُ نَظير ذلكَ بيَّنَ النّزعاتِ البشريّةِ الإيجابيّة. مثل: السّخَاء، التّضحِيَة، المَحبّة، العَفاف، الأمَانة، تَقديمُ العونِ المادِيّ والمَعنويّ للآخَرين، إدخالُ المسرّةِ إلى قُلوبِ الآخَرين، وما إلَى ذلك.

[**يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى**]. لايكون هذا مُقتَصِراً على أبناءِ زَمانٍ ومكَانٍ، بلْ جعَلهُ اللهُ سُبحانَهُ وتَعالى مِن حَقِّ أبناءِ كُلّ زَمانٍ ومَكان. فكُلّ مَن يَستَغفِر اللهَ عن ذنُوبِه، ويتُوبُ إليهِ، يَظفَرُ بهذا الحَقّ الّذِي جعلَهُ اللهُ عَزّ وجَلّ بفَضلِهِ حَقّاً لَه.

[**مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**]النحل٩٧.

[**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى**]طه١٢٣. هذا عهدٌ مِن اللهِ تَعالى شأنهُ للإنسانِ. ونَظِيرُ هذا العَهدِ:

[**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً**] طه١٢٤.

فـ: [**إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى**]. [**إِلَى**] نِهايةِ الحياةِ البشريَّةِ على الأرْض. فما دامَ إنسانٌ واحدٌ على الأرضِ، سيَكُونُ هذا منْ حَقّهِ.

[**وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ**]. بيانٌ منَ اللهِ تعالى شأنُهُ بأنْ يمكِنُ لهُ أنْ يرتَقِي في عَملهِ الصّالح، فيَجعلهُ اللهُ [**ذِي فَضْلٍ**] عِندَه. فَهُو إنسانٌ فاضلٌ بشهادةِ اللهِ عزّ وجلّ على فَضلِه.

والفَضلُ هوَ زيادةٌ منْ عَملِ الخَيرِ في سَبيلِ اللهِ تعَالى. ولذلكَ ليسَ: [**وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي**] حقٌّ حَقَّهُ. فذلِكَ حقّهُ. لكنْ إضافةً إلى ذلك: [**وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ**]. فالفَضلُ هُو الزّيادةُ الّتِي تَكونُ خالِصةً لوَجهِ اللهِ تعَالى. فإذا كانَ لكَ دَينٌ على شَخصٍ، وعَرفتَ بأنَّهُ يَمرّ بِضَائقةٍ، فعفَوتَ عنهُ دَينكَ، وأنْ تَنوِي أنْ تَرفعَ عنهُ همّ الدَينِ، وتُفرِحَ قلبهُ في سبيلِ اللهِ تعالى. فهكذا تكُونُ فاضِلاً عندَ اللهِ تعَالى. والفَضلُ يتَوسَّعُ ويتفرَّعُ، فيُمكِنُ أنْ يكونَ بالمالِ، بالمُساعدةِ العضَليّة، أو المَعنويّة، أو بالصُّلحِ بينَ شخصَين، أو بعملٍ طَوعِيّ، بإماطَةِ الأذَى عن الطّرِيق، أو بالتّسامُح، أو السِّتر، أو العَفاف، وما إلى ذلك. أي هُو كلُّ ما أنَّكَ إذا لمْ تَفعلْهُ، لا شيءَ يكونُ عليك، لكنكَ تفعَلهُ. وبذلكَ فإنَّكَ كُلّما تَزيدُ مِن عملِ الخَيرِ خالِصاً للهِ تَعالى، تَرتَقِي في درجاتِ مَنْ شَهِدَ اللهُ سُبحانَهُ وتَعالى بأنَّهم منْ ذَوِي الفَضلِ. عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي امْرَأَتِكَ"[٤].

فالنّاسُ ليسُوا سَواءً فِي الفَضلِ، بَل أن الزّيادةَ تُقابَلُ بالزّيادةِ منَ اللهِ عزّ وجَلّ. فكَما أنَّكَ تَفضَّلتَ بِزيادَةٍ، فإنّ اللهَ يتفضَّلُ عليكَ ويُثيبُكَ بزِيادةِ الزّيادَة.

٤ رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

[**وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ**].
[**وَإِن تَوَلَّوْاْ**] عن الاستِغفارِ والتّوبةِ، وأصَرّوا على التّمادِي فِي انتِهاكِ حدُودِ الله، والاستِهزَاء بآياتِهِ ورُسلهِ: [**فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ**].
الخَوفُ هُنا بمَعنَى الحِرصِ الشّدِيد: [**فَإِنِّيَ**] حَريصٌ [**عَلَيْكُمْ**] حتّى لا تلقَوا [**عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ**]. ولذلكَ: أقبِلُوا على الاستِغفارِ، وتُوبُوا إلى اللهِ. وبتَكامُلٍ مع الآيةِ السّابِقة: [**إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ**] بعاقِبةِ التولّي [**وَبَشِيرٌ**] بثَوابِ الاستِجابَةِ. فالّذِي يَستجِيبُ، يظفَرُ بثوابَين: [**يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً**]. في الدّنيا، كذلك: [**وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ**]. في الآخِرَة
إذَنْ: [**فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ**]. وهذا الكلامُ يقولُهُ للّذِينَ يُكذِّبونَهُ ويَستهزِؤونَ بهِ. والكلامُ هنا للهِ سُبحانهُ وتَعالى فِي بيانِ بأنّهُ تعَالى شأنُهُ أرسلَ رسولهُ عليهِ الصّلاةُ والسّلام ليكُونَ حَريصاً عَليهم، أرسلَهُ ليكُونَ لهُم وليسَ عَليهِم.
وكذلكَ بيانٌ بأنّ الرّسولَ ورَغم كُلّ ما يلقَي مِنهُم منْ أذَى، فإنّهُ يخافُ عليهِم، ويسعَى كَي يُصلِحَهُم، حتّى يتجنَّبُوا [**عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ**].
وأمامَ هذهِ الحَقيقةِ، فقدْ استَجابَ البَعض، واستَغفرَ الله، وتابَ إليهِ عندَ نزُولِ هذهِ الآيةِ الكَرِيمةِ. وما يزالُ البَعضُ منْ كلّ أنحاءِ العالمِ يَستجِيبُونَ ويؤمنُونَ بالقُرآن.
وكَما أنّ البعضَ لبِثَ مُستكبِراً ومستهزِءاً بآياتِ الله، وتَولّى عَنها، ما يزالُ البعضُ يَسلكُ ذاتَ النّهجِ في التَولّي والاستِهزاء.
وخوفُ النّبي صلّى اللهُ عليهِ وسلّم لمْ يَقتَصِر على أولئكَ الّذين خاطَبَهُم عندَ نُزولِ الآيةِ، بلْ هو خوفٌ مفتوحٌ يشمَلُ أبناءَ كُلّ زمانٍ ومَكان؟

البابُ الرّابِع : حِسْبة المَرجِعيّة
[٤] [إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ]

مايزالُ الخوفُ مُستمرّاً على هؤلاء، وما تزالُ المَوعِظةُ مُستمرّةً حتّى يتَّعِظَ منهُم مَنْ يتَّعِظ. وكُلّ ذلكَ بدافِعِ المحَبّةِ الإنسانيّةِ الّتِي يَمتلِئ بها قلبُ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم للإنسانيّةِ جَمعاء. فهؤلاءِ لا يقولُ لَهُم: اسرِقُوا. بلْ: لا تَسرِقُوا. لا يقولُ لهُم: اعتَدُوا. بلْ: لا تَعتدُوا. لا تَكذِبُوا، لا تَسرِقوا، لا تَغدرُوا، لا تَخُونُوا، لا تَظلِمُوا. عنْ أبي هُريرةَ عن النّبي صلّى اللهُ عليهِ وسلّم: "لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ: لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا" وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: "بِحَسْبِ

امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ"[٥].

[**إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ**]. تذكيرٌ لهؤلاء الّذينَ يَستهزؤونَ بالقرآنِ بأنّ مَرجعَهُم يكونُ[**إِلَى اللَّهِ**]. فَمهما حاولتُم أنْ تَهربُوا منَ اللهِ: [**إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ**]. ارجِعُوا مُطيعين، لا مُعاندِين، ارجِعُوا صَالحِين، لا فاسِدين، ارجِعُوا رَجعةَ هِدَاية، لا رَجعةَ ضَلال، رجعةَ استقامةٍ، لا رجعةَ اعوجاج.

[**وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**]. هنا تذكيرٌ في تذكير. فالذي تَرجعُونَ إليهِ قادرٌ أنْ يغفِرَ لكُم كُلّ ما اقترفتُموهُ مِن ذُنوبٍ حتّى لو كانتْ مِدادَ الأرض، إذا استَغفَرتُم، وتُبتُم، ونَدِمتُم، وأصلَحتُم، وبدأتُمْ صفحةً إيمانيّةً جديدةً منْ حياتِكُم.

وإذا تولَّيتُم وأصرَرتُم على انتِهاكِ حُدودِ اللهِ، فهُو قادرٌ أنْ يَردَعكُم في الدّنيا، ويُعاقِبكُم في الآخِرة: [**وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**]. ولا شيء قد بوسعهِ ألاّ يرضخَ لقُدرَتهِ [**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**]البقرة١١٧.

البابُ الخامِس : حَقيقةُ الإنسانِ في علمِ اللهِ

[٥] [أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ]

هنا تعزيزٌ لـ: [**إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ**]. في الآيةِ السّابقةِ.

[**أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ**]. [**لِيَسْتَخْفُواْ**] مَنْ الّذي ينطقُ لهُم وحياً منَ اللهِ تعَالى، وهُو رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم. فعِندَما يرَونهُ: [**يَثْنُونَ**] . يُديرُونَ [**صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ**]. حتّى لا يَعرفهُم. و[**أَلا**] هنا تَنبيهيّة، وقد استُهلّتْ بها الآيةُ الكَريمةُ.

ثمّ جاءتْ [**أَلا**] الثّانيةُ [**أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ**]. لتؤكّدَ التنبيهَ بتنبيهٍ آخَر: [**أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ** يجعَلُونَ **ثِيَابَهُمْ**] أغطيةً لوجوهِهم. فلا يكتفُونَ[**إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ**]. بل وإضافةً إلى ذلك: [**يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ**]. وهذا قريبٌ من: [**جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً**]نوح٧. فالغِشاءُ هو الحاجِزُ، ومن ذلكَ غِشاءُ البكارَةِ، أو غشاءُ الطّبل. فهؤلاءِ يَجعلُونَ ثيابَهُم غِشاءً حتّى لا يُرَوا. يقولُ اللهُ الّذي إليه مَرجِعُهم: [**أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ**]. فكَما أنّ الظّاهرَ عندَ اللهِ ظاهرٌ، كذلكَ فإنّ الباطِنَ عندهُ ظاهِر، وكما أنّ الجَهرَ عندَهُ جهرٌ، كذلكَ فإنّ السِرّ عندَهُ جهرٌ. [**إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى**]الأعلى٧. فلا خفاءَ على اللهِ مَهما تَغشّى الإنسان.

---

٥ صحيح مسلم

جاءتْ خاتِمةُ الآية: [**إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**]. مكتمِلةً مع خاتِمةِ سابِقَتِها: [**وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**]. فالذي [**عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**]. اعلَمُوا [**إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**]. ويبقَى هذا مُتماسِكاً مع مُستهَلّ الآيةِ السّابِقة: [**إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ**]. فاللهُ الذي إليهِ مَرجِعكُم [**عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**]. وكذلكَ [**إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**].

[**إِنَّهُ عَلِيمٌ**] بِما يَجرِي في القُلوبِ الّتي في [**الصُّدُورِ**].

فالقَلبُ هو ذاتُ الصَدر، وصَدرٌ بِلا قلبٍ، هو صَدرٌ بِلا قلبٍ ذات.

[**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**]الحج٤٦.

[**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ**] ألأعراف٤٣.

وكما أن [**ألا**] التنبيهيّة وَرَدَتْ مرتَّينِ لمزيدٍ من تنبيه، وَرَدَ الصَدرُ كذلكَ مرتَّين في الآية، مرَّةً في الجملةِ الأولى: [**أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ** . ومرَّةً في الجملةِ الأخيرةِ: [**إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**].

فبدأنا مع الآيةِ بالتّنبيهِ، وانتهَينا معَها بالصّدر. فالغايةُ مِنَ التّنبيهِ هو تَحريكُ ما[**بِذَاتِ الصُّدُورِ**]. مِن هُنا: فإذا أخفَيتُم صدُورَكُم، أو ما أخفيتمُوها، فإنّ اللهَ: [**إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**].

وهكذا فإنّ الآيةَ الكريمَة تُعلّمكَ الوضُوحَ، لأنَّكَ واضحٌ عندَ اللهِ كُلّ الوضُوحِ مهما حاولتَ أن تتخفّى، أو تتغشّى.

البابُ السّادسُ : الرِّزق

[٦] [وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ]

[**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ**]. يمكِنُ لهَا أنْ تعِيشَ دونَ أنْ يرزُقهَا اللهُ، فكُلّ رزقٍ هوَ من عندِ اللهِ. وهذا يكونُ شامِلاً للإنسانِ وسائرِ مخلوقاتِ الله[**فِي**] كوكبُ [**الأَرْضِ**]. سواء أكانَتْ بريّةً أو بحريّةً . لأنّ البِحارَ والأنهارَ كلّها هي [**فِي**] كوكبِ [**الأَرْضِ**]. فاللهُ عزّ وجلّ هُو الّذي يمدّهَا بالرّزقِ من طعامٍ، وشرابٍ، وكسوةٍ، وهواءٍ، وكُلّ ما تَستهلكُ.

فلا دابَّة قادرةٌ أن تحصلَ على شيءٍ، دونَ أن يرزُقهَا اللهُ بهِ. وعلى ذلكَ فمَهما تمكَّنَ الإنسانُ منْ رزقٍ، فلَنْ يستطيعَ استخدامَهُ إلاّ إذا أذِنَ اللهُ لهُ بذلكَ، وليكُنْ مَلَكاً وكُلّ ما في البلادِ تحتَ أمرتِهِ. لكنّ اللهَ إنْ لمْ يشأ، لنْ يستطِيعَ أنْ يتناولَ لُقمةَ طَعامٍ، ولا شُربةَ شرابٍ حتّى لو وضعوا أمامهُ مائةَ مائدةٍ مليئةٍ بأصنافِ الطّعامِ والشّراب. وسيَبقى مَحرُوماً ولا تَدخُل فمَهُ لقمةُ طعامٍ واحدةٍ، ولا شُربةُ شرابٍ واحدةٍ حتّى يشاءَ اللهُ ويعيد إليهِ عافيتَهُ، أو لا يُعِيدُها إليه. فيتركُهُ وقتاً يعيشُ من خلالِ الحُقَن؟ وحتّى هذه الأغذيةُ التي تكونُ من خلالِ الحُقَنِ فإنّ الله يرزقهُ بها، ولو شاء، حَرَمهُ منها أيضا حتّى يتحوّلَ إلى هيكلٍ عظميّ وكل تلكَ الموائدِ أمامهُ.

[وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا]. وليسَ هذا فحسبْ، بل: [وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا]. هذهِ التفاصيلُ الدّقيقةُ الّتي لا يُمكنُ لأحدٍ أنْ يعلمَ بها سِوى اللهُ الذي خلقَها. فاللهُ عزّ وجَلّ يعلمُ أنّ فلاناً قد استقرَّ الآنَ في ظهرِ الرّجلِ الّذي سيُصبحُ فيما بعد أباً لهُ. ويعلمُ أنّ هذا الرّجل قدْ استودَعَ هذا الفلانَ في رحمِ هذه المرأةِ التي ستُصبحُ أمّاً لَه. ولا يتوقَّفُ المُستقرّ هنا فحَسبْ، بلْ يمتدّ إلى ما بعد الولادَة، فيعلمُ اللهُ بتفاصيلِ تحرّكاتِ كلّ[دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ]. مثل كمْ مرّة سَيدُقّ قلبُ هذا الشّخص أو ذاكَ، كَم خُطوةً سيمشِي، وكلّ ما سيحصُلُ لَهُ [إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَىَ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ]آل عمران٥.

ثم بيَّنَتْ الآيةُ الكريمَةُ في خاتِمتِها: [فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ]. فهذا كلّه بتفاصيلِهِ الدّقيقةِ، موثَّقٌ ومثبَّتٌ[فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ]. كلّ شيءٍ فيه بائنٌ للهِ عزّ وجلّ: [وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ]الأنعام٥٩.

البابُ السّابعُ : بينَ إحسانِ العَملِ وإفْسَادِه

[٧] [وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ]

بعدَ كُلّ تلكَ التّفاصيلِ الدّقيقةِ والمُتماسِكةِ الّتي وَرَدَتْ في الآياتِ الستّ المُتقدّمةِ، قدْ يسألُ الإنسانُ نفسَهُ: كيفَ يُلِمّ اللهُ عزّ وجلّ بكلّ هذهِ التّفاصيلِ في وقتٍ واحدٍ ولمياراتٍ مليارات مخلُوقاتهِ. والإنسانُ لا يُشكّلُ سِوَى نِسبةً قليلةً مِنْ أعدادِ الحَيواناتِ الّتي تَعيشُ على الأرضِ بِمُختَلَفِ أنواعِها وأحجامِها. فـ: [وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ] بشكلٍ عامٍ دونَ استِثناء [إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ].

في هذهِ الآيةِ الكريمَةِ يأتِي بيانُ ذلك: [وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ].

فأمامَ هذا الخَلقِ الكَبيرِ، كلّ ما دونَهُ يبدُو طَبيعيّاً. فما كانَ هُناكَ وُجودٌ لأيّ سماءٍ مِنَ [السَّمَاوَاتِ] السّبعِ على الإطلاق. فخَلَقَ اللهُ جلَّ جلالُهُ هذهِ [السَّمَاوَاتِ] وجعلَ لها وجوداً من لا وجُود، جعلَ لها حُضوراً منْ لا حُضُور، شيئاً مِنْ لا شَيء. [فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ]فصلت١٢.

وهِي على شَكلِ طِباق: [أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً]نوح١٥. وكذلكَ هي سماواتٌ شديدةٌ لا تتأثَّرُ بعواملِ الزَمَن: [وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً]النبأ١٢.

هذهِ الشّمسُ الّتي تَراها وما تحتَوِي مِنْ خواصٍ، لمْ يكُنْ لها أيّ أثرٍ، فأوجَدَها اللهُ، كذلكَ القمَر، والنّجُوم، وكُلّ ما تَحتويهِ [**السَّمَاوَاتِ**] السّبعُ ذرّةً ذرّة.

ثمّ: [**وَالأَرْضَ**]. كذلكَ خلقَ الأرضَ، وهي ليستْ أرضاً واحدةً، بلْ سبعَ أرضين على شكلِ طبقاتٍ، ونحنُ نعيشُ على سطحِ الطّبقةِ الأولَى منَ الأرْض: [**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ**]الطلاق١٢.

وليسَ هذا فحسبْ بل خَلَقَ اللهُ تباركَ وتَعالى كلّ ما بين [**السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ**] أيضاً: [**الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً**]الفرقان٥٩.

فالكُرةُ الأرضِيّةُ بِكلّ ما فيها منْ جِبالٍ، ومياهٍ، ومُحيطاتٍ، ومعَادِن، وكذلكَ الطبقاتُ الأرضيّةُ السّبع، ما كانَ لها أيّ أثر، فخَلَقَها اللهُ وجعلَ لها وجوداً.

وكُلّ ذلكَ ليسَ في سِتّةِ قرُون، أو سِتّةِ عُقود، أو سِتّةِ أعوَامٍ، أو ستّةِ شهُورٍ، أو ستّةِ أسابيع. بلْ فقَط: [**فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**]. والّذي أتَى بكلّ هذا، قادرٌ أنْ يأخذهُ أيضاً كما لوْ أنّهُ لمْ يكُنْ قد ذاتَ يومٍ: [**يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**]الأنبياء١٠٤. والأمرُ هنا ليسَ في ستّةِ أيامٍ بَلْ أقل، وأقلّ بِكَثِير: [**وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**]النحل٧٧.

إذَن، أينَ كانَ اللهُ سبحانهُ وتعالَى قبلَ كُلّ ذلك؟

[**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء**]. وهذا خيرُ دَليلٍ بأنّ اللهَ تعالى شأنُهُ لا يحتاجُ إلى كلّ هذهِ السّمواتِ السّبع، والأرضين السّبع. وفِي أيّ لحظةٍ يُمكِنُ أنْ يَستغنِي عَنها جَميعاً بِما فيها. [**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء**]. وبذلكَ فإنّ خلقَ الماءِ، كانَ قبلَ خلقِ [**السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**].

وعَرشُ اللهِ عزّ وجَلّ: [**عَلَى الْمَاء**]. مِنْ هنا أصبحَ الماءُ طاهِراً ومُطَهِّراً، يُطهِّرُ، ولا يُطهَّرُ، لأنّهُ لا يوجَدُ ما هو أطْهرُ منهُ كَي يُطهّرَهُ. فبالماءِ تُطهَّرُ النّجاسةُ، وبهِ تُرفَعُ الجَنابةُ، وبِه تتطهَّر المرأةُ من الحيض، وبه يُتَوَضَّأ. الماءُ هُو عنوانُ الطُهرِ وعنوانُ النّظافَةِ، كما أنّ الحياةَ تبدأ مِنَ الماءِ: [**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**]الأنبياء٣٠. [**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**]النور٤٥. فالماءُ هُو أصلُ كُلّ شيءٍ حَيّ، نِسبةُ الماءِ في جسمِ الإنسانِ تَفُوقُ أيّ نسبةٍ أخرَى، حيثُ يُشكّلُ الماءُ نحو٧٠ % من جسمِ الإنسان. وهِيَ نسبةٌ مثل نِسبَة وجودِ الماءِ على الأرضِ، فيشكّلُ الماءُ أيضاً نحوَ نِسبَة ٧٠ % وما تبقى يابِسة. والأمرُ الآخرُ هوَ أنّ الماء هوَ عنصرٌ حيٌّ منذُ أن خَلَقَهُ اللهُ وجعلهُ تحتَ عرشهِ، ولذلكَ تبدأ كُلّ حياةٍ منهُ. وبذلكَ فإنّ الماءَ يتجاوَبُ مع الإنسانِ. مثلاً إذا أتيتَ بكأسَينِ من الماءِ، وضَعتَ

إحداهُما جانِباً، وحملتَ الأخرَى بيدكَ وقرأتَ على مائِها شيئاً من القرآنِ. هُنا فإنّ ماءَ هذِه الكأسِ يتمتَّعُ بمزايا لا يتمتَّعُ بها ماءُ الكأسِ الأخرى، فهذا الماءُ يتفاعَلُ مع المرِيضِ ويمدّهُ بالطّاقةِ كونهُ ماءٌ قُرِئَتْ عليهِ آياتٌ منْ كِتابِ اللهِ:

[**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء**]فصلت٤٤.

[**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**]الإسراء٨٢.

فالمريضُ يشفَى بالقرآن، والماءُ منَ الوسائلِ الّتي يمكِنُ الاستعانةُ بها لهذا الشّفاءِ من خلالِ قراءةِ شيءٍ منَ القرآنِ عليه، ثمّ شُربِهِ، أو حتّى الاغتِسَالِ بِهِ.

الأمرُ الآخرُ أنّ القرآنَ يُحقّقُ راحةً نفسيّةً للمؤمِنِ، وإذا كانَ مرِيضاً، فإنّ الرّاحةَ النّفسيّةَ تُعينُهُ على الشّفاء، ولا يبلُغ الإنسانُ درجاتٍ متقدّمةً مِنَ الرّاحةِ النّفسيّةِ في شيءٍ كَما يبلغُها في القرآن [**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ**]يونس٥٧.

[**الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**]الرعد٢٨.

ويَغتَنِي الماءُ بالتنوّعِ في خصائِصِهِ: [**هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ**]الفرقان٥٣.

فهُناكَ ماءٌ حلوٌ لذيذُ الطّعم، وماءٌ مالحٌ، وماءٌ مُرٌّ: [**وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاء فُرَاتاً**]المرسلات٢٧.

[**وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً**]الفرقان٤٨. فماءُ المَطرِ يختلفُ عن ماءِ البَحرِ، وماءُ البَحرِ يختلفُ عنْ ماءِ النّبعِ، وماءُ النّبعِ يختلفُ عن ماءِ النّهرِ، وماءُ النّهرِ يختلفُ عن ماءِ الجبّ، والماءُ الراكدُ يختلفُ عن الماءِ الجاري، والماءُ الباردُ يختلفُ عن الماءِ السّاخنِ، والماءُ الذي يُقرأ عليهِ شيءٌ منَ القرآنِ يختلفُ عن الماءِ الّذي لا يُقرأ عليهِ.

فمَهما اغتَسَلتَ بالماءِ دُونَ ذكرٍ، لا يتأهّلُ كي يَرفَع عنكَ الجَنابة حتّى لو لبِثْتَ فيه يوماً كاملاً فتَلبِثُ في جنابَتِكَ كما لو أنّ قطرةَ ماءٍ لمْ تُصبْ بدنكَ.

فذِكرُ اللهِ هو ليسَ محضَ كلامٍ، بلْ لهُ نتائج، ولكلّ نتائِجُه، ولا ذِكرَ لا نتائجَ له.

فالّذي يقرَأ القُرآنَ، ليسَ كالّذي لا يقرأُ القرآن، والّذي يقرأُ القرآنَ ويعملُ بهِ، ليسَ كالّذي يقرأُ القرآنَ ولا يعملُ به.

عن أبِي مُوسى الأشعريّ قالَ قال رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم : "مَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ، لاَ رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ"[٦].

٦ رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

فكلّ شيءٍ يتفاعَلُ معَ ذِكرِ الله، ويتبرَّكُ بذكرِ الله. فمولودكَ الجَديدُ الّذي تؤذّنُ في أُذنهِ، هو ليسَ كالّذِي لا تؤذّنُ في أذنِهِ، والثّوبُ الجديدُ الذي تَرتدِيهِ لأوَّلِ مرَّةٍ، وتذكرُ عليهِ اسمَ الله، هوَ ليسَ كالثّوبِ الّذي لا تذكُرُ عليهِ اسمَ الله. فاعلَمْ بأنّ الثّوبَ الذي بدأتَ ارتداءهُ بذكرِ اللهِ، هو ليسَ كالثّوبِ الذي بدأتَ ارتداءهُ دُونَ ذِكرِ الله.
والدُعاءُ يغيِّرُ الأشياءَ بِفضلِ الله، ولولا ذلك لَمَا كانَ. فتبدأ يومك سائلاً اللهَ عزّ وجلّ الخَير.

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علَّمها هذا الدعاء: "اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ، وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَاذَ مِنْهُ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ تَقْضِيهِ لِي خَيْرًا"[٧].
عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو اللَّهَ بِدُعَاءٍ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِمَّا أَنْ يُعَجَّلَ لَهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِمَّا أَنْ يُدَّخَرَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يُكَفَّرَ عَنْهُ مِنْ ذُنُوبِهِ بِقَدْرِ مَا دَعَا، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ، أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ، أَوْ يَسْتَعْجِلْ". قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَسْتَعْجِلُ؟ قَالَ: "يَقُولُ: دَعَوْتُ رَبِّي فَمَا اسْتَجَابَ لِي"[٨].
عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِى كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَىْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّى فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ"[٩].
عن ابن عمر رضِيَ اللهُ عنهمَا قال: (قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلاَءِ الدَّعَوَاتِ لأَصْحَابِهِ : "اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلاَ تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلاَ تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلاَ مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلاَ تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لاَ يَرْحَمُنَا"[١٠].

٧ رواه أحمد
٨ رواه الترمذي
٩ صحيح مسلم
١٠ رواه الترمذي

عن شَدَّاد بْن أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا أَنْ نَقُولَ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَأَسْأَلُكَ عَزِيمَةَ الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا، وَقَلْبًا سَلِيمًا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ مِمَّا تَعْلَمُ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ")[١١].

وعن أَبي سعيد الخُدْري قال: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا اسْتَجَدَّ ثَوْبًا سَمَّاهُ بِاسْمِهِ قَمِيصٌ، أَوْ عِمَامَةٌ ثُمَّ يَقُولُ:

"اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ كَسَوْتَنِيهِ، أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهِ وَخَيْرِ مَا صُنِعَ لَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ")[١٢].

عن الْبَراءِ بن عازبٍ رضيَ اللَّه عنهما قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ نَامَ عَلى شِقِّهِ الأَيمنِ، ثُمَّ قَالَ: "اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلجَأْتُ ظهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبةً وَرهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجأ ولا مَنْجى مِنْكَ إلاَّ إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكتَابِكَ الَّذِي أَنْزلتَ، وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ")[١٣].

تبقَى حاجةُ الإنسانِ ماسّةً إلى اللهِ عزّ وجلّ، والدّعاءُ إيمان، وهُو هامٌّ للغاية، حيثُ يكونُ الإنسانُ في طلبِ حاجةٍ منَ اللهِ الكريم. وشخصٌ يدعُو، هو ليسَ كشخصٍ لا يدعُو، وشخصٌ يُدعا لهُ ليسَ كشخصٍ لا يُدعَا لهُ.

إذَنْ: [**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**]. أي [**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**]. قبلَ أنْ يخلُقَ [**السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ**]. وعلى ذلكَ فَمِنَ الطّبيعِي: [**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**]البقرة٢٥٥. فالعرشُ يعلُو ولا يُعلَى عليه. وهُو أعلَى ما خَلَقَ اللهُ سُبحانهُ وتعَالى، أي هوَ أعلى مِنَ السّماءِ السّابعَة: [**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى* لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى**] طه٥، ٦.

عن أبي ذرّ الغفاريّ رضيَ اللهُ عنهُ قال: سَأَلْتُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ عن قَوْلِ اللهِ تَعالَى: [**وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا**]يس٣٨؟. قالَ: "مُسْتَقَرُّها تَحْتَ العَرْشِ"[١٤].

وللعرشِ قوائمُ، عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "النَّاسُ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ"[١٥].

---

١١ رواه أحمد والترمذي
١٢ رواه أحمد
١٣ صحيح البخاري
١٤ رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

فالعرشُ يكونُ فوقَ الجنّةِعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ"[١٦].

عَنْ عمران بن حُصين، عن النّبي صلّى اللهُ عليهِ وسلّم: "كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ"[١٧]. وقد خلقَ كُلّ شيء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسولَ اللهِ صلّى الله عليهِ وسلّم قال: "إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْقَبْضُ يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ"[١٨].

[لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً].

العِبادَة هي حالةُ نقاءٍ كامِلةٍ لا ازدواجَ فيها، ومتى ما شابها ازدواجٌ، فَسدتْ وما عادتْ عِبادَة.

منْ هنا فإنّ اللهَ عزّ وجَلّ، يَختبِرُ عبدَهُ المؤمنَ سواء بالسرّاءِ، أو بالضرّاء.

على سبيلِ المِثالِ أنْ يعطيهِ مالاً، أو جاهاً، أو نفُوذاً، أو سُلطةً، فيعبّرُ هذا العبدُ عن معدَنِهِ الحقيقِيّ من خلالِ ما أتاحَ لهُ اللهُ من إمكاناتٍ اختباريّةٍ. ولذلكَ جاءتْ الكلمةُ بالِغةَ الدقّة: **[لِيَبْلُوَكُمْ]**. لِتُخرِجوا ما لديكُمْ وتحوّلوهُ إلى عملٍ وممارسةٍ حتّى لا يقول أحدٌ بأنّهُ مَظلُومٌ، وأنّ اللهَ لَمْ يُتِحْ لَهُ أيّ فُرصةٍ كي يكتَسبَ الخَيرات.

فقد أعطاكَ اللهُ صِحّةً، أعطاكَ عُمراً، أعطاكَ مهنةً، أعطاكَ مالاً، أعطاكَ ذكاءً. وحتّى السّلطة فإنّ اللهَ سبحانهُ وتَعالى لا يحرمُ أحداً منها. فَهُنَاكَ مَن يُمارِسُ السّلطةَ على بلادٍ بأكمِلِها، وهُنَاكَ مَن على مدينة، على حيّ، على ناحيَة، على قرية، على عائلتِهِ، على نفسِه، على مهنتِه، على مَالِه، على علاقاتِهِ الاجتماعِيّة، وعلى وقتِه، على صِحّتِه.

إذَنْ: **[لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً]**. فمِنْ خلالِ كُلّ هذهِ العَطاءاتِ الّتي ينعُمُ بها اللهُ عليك، يكونُ أمامكَ أنْ تُحسّنَ استِخدامَها عَمليّاً. فكُلّ عملٍ تُحَسّنُه يُسجَّلُ لَك، ويُضاعِفُ اللهُ لِمَنْ يشاءُ: **[إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً]**الكهف٣٠.

---

١٥ صحيح البخاري
١٦ صحيح البخاري
١٧ صحيح البخاري
١٨ رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

فكلّ هذه الامكاناتِ الّتي يتفضّلُ بها اللهُ على الإنسانِ، تجعَلهُ مُتمكّناً منَ الإحسانِ، وكذلكَ يمكِنُ أن يُسيء استخدامَ هذهِ الإمكانات، فيطغَى ويَبطُر. وهو أيضاً يُظهِرُ معدَنهُ السّلبي، كما يُظهرُ المُحسِنُ معدنَهُ الإيجابِيّ. فشخصٌ جعلهُ اللهُ عزّ وجلّ في موضِعِ نفُوذٍ، تراهُ يُحسنُ وينفَعُ، ويوصلُ النّاسَ إلى حُقوقِهم. فقد أحسنَ هذا الشّخص استخدامَ هذا النّفوذ ووظّفهُ ليُخرِجَ من خلالِهِ ما بِداخِلِه من صَلاح، فيكونُ عندَ اللهِ على رأسِ صلاحهِ الذي مارسَهُ خِلالَ فترةِ نفوذِه.

وشخصٌ آخر جَعلهُ اللهُ في ذاتِ موضِعِ النّفُوذِ، فتَراهُ يمرد، ويَجُورُ، ويظلِمُ، يُلحِقُ أفدحَ الأضرَارِ بالنّاس، يَستكبِر. فهذا الشّخصُ يغلُظُ في الجَورِ، ويتَمادَى في الطّغيانِ، وهُو معَ الأيّامِ يُظهِرُ غِلّهُ وحِقدهُ ويَبانُ على حَقِيقتهِ منْ خِلالِ هذهِ الإتاحَةِ الّتي أتاحَها اللهُ عزّ وجلّ لهُ. فَتَرى اللهَ يُعاقِبهُ في الدّنيا قبلَ الآخِرَة، كما أنّ اللهَ يُكرّمُ الأوّلَ في الدّنيا قبلَ الآخِرَة. وكما أنّ الثّانِي ينتَهِي إلى الذُّلِّ، فإنّ الأوّلَ يلبِثُ في عِزّهِ رَغمَ انتِهاء فَترةِ النُّفوذِ بالنّسبةِ للاثنَين.

فـ: [**أَحْسَنُ عَمَلاً**]. أي: أخلَصَ وأصوَبَ [**عَمَلاً**]. مُخلِصٌ شَدِيدُ الإخلاصِ، ودَقيق شديدُ الدقّةِ مُتحرّياً الصّوابَ بدقةٍ بالِغةٍ في عِبادَتِه. فَهو: [**أَحْسَنُ عَمَلاً**]. في إصابةِ الهَدفِ منَ العِبادَة. لأنّ أيّ عِبادَةٍ لها هَدَف، ويُصِيبُ الإنسانُ هَدَفَهُ بمقدارِ ما يكونُ مخلِصاً ودَقيقاً في العَملِ إليهِ: [**أَيُّكُمْ**]. أيْ الّذين يبلُغونَ أهدافَ العِبادَةِ. فمثلاً الصّلاةُ هيَ ليسَت مَحضَ حرَكات، والصّيامُ هو ليسَ مَحضَ امتِناعٍ عن المُفطِرات. وبذلك يُروى عن النبي صلّى اللهُ عليهِ وسلّم أنهُ طلبَ مِنْ أحَد المُصلّينَ إعادةَ الصّلاة. عن أبي هُريرة رَضِي اللهُ عَنه: (أنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ دَخَلَ المَسْجِدَ فَدَخَلَ رَجُلٌ، فَصَلَّى، فَسَلَّمَ علَى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَرَدَّ وقالَ: "ارْجِعْ فَصَلِّ، فإنَّكَ لَمْ تُصَلِّ"، فَرَجَعَ يُصَلِّي كما صَلَّى، ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ علَى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقالَ: "ارْجِعْ فَصَلِّ، فإنَّكَ لَمْ تُصَلِّ" ثَلَاثًا، فَقالَ: والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ ما أُحْسِنُ غَيْرَهُ، فَعَلِّمْنِي، فَقالَ: "إذَا قُمْتَ إلى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ ما تَيَسَّرَ معكَ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حتَّى تَعْدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، وافْعَلْ ذلكَ في صَلَاتِكَ كُلِّهَا")[١٩].

وعن أبي هُريرة رَضِي اللهُ عنهُ أنّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم قال: "رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلاّ الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلاّ السَّهَرُ" [٢٠].

وعن أبي هُريرة رضِي اللهُ عنه قال:

---

١٩ صحيح البخاري

٢٠ رواه ابن ماجه

(قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا. قَالَ: "هِيَ فِي النَّارِ".
قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنْ الْأَقِطِ وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ: "هِيَ فِي الْجَنَّةِ")[٢١].
وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : (سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟ فَقَالَ: "تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ")[٢٢].

عنْ أبي الدّرداء، عن النّبي صلّى اللهُ عليهِ وسلّم: " مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ" [٢٣].

إذَنْ عليكَ أنْ تُحسِنَ العملَ في العِبادَة، فيُمكِنُ أنْ تكُونَ مُسِيئاً في عَملك، مثل أنّكَ تُخرِجُ زَكاتكَ لامرأةٍ، ولكِنْ في نَفسِكَ مآربُ مِنها، فتكُون قد أطعتَ اللهَ في إخرَاجِ زكاتِك، لكِنّكَ تكُون قدْ أفسَدتَ طاعَتكَ بهذِه المآرِب.

لكِنْ لماذا العِقابُ رَغم أنَّكَ أطعتَ اللهَ فِي إخراجِ الزّكاة؟ العِقابُ لأنَّكَ زوَّرتَ عِبادَتكَ للهِ، وجَعلتهَا وسِيلةً لتَحقِيق مآربكَ منْ تِلكَ المَرأة. فَهِي أمِنَتْ ووثقَتْ بِكَ كونكَ مُؤمنٌ تُوصِلُ إليها حقَّها الّذي جَعلهُ اللهُ لدَيك. ورَغم وُجودِ أناسٍ يمكن لهم أن يعطوها من غير الزكاة، أكثر ممّا تعطيها إذا طلَبَت منهم، إلاّ أنَّها لا تقرَبهم تحاشياً لمآرِبَ قد تكون لهم من خلال ذلك، فتتفادى أن تُستَدرَج إلى مُنحرفات. لكن كونكَ مؤمن وهي تعرف بأنها تطلب حقّاً مشروعاً أحقّه الله لها، فتقبل منك هذا الحق، سواء هي طَلَبت، أم أنَّك بادرتَ وأعطيتَها. فرغم أن لا شيء عليها وقد أخذَت استحقاقها من الزكاة منك، إلاّ أنَّكَ لم تكن حَسَن النيّة في العطاء، بل كنتَ سيّء النيّة، حتى وإن لم تنل منها مأرباً، لأنَّكَ بذلكَ تكون قد جللتَ ركناً أساساً من أركان إيمانِكَ، وسيلةً لإفساد امرأة. وها هُنا فمن الطبيعي تكون قد أفسدتَ زكاتك رغم أنكَ أخرجتها. وقس هذا على سائِر عِباداتِك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ

٢١ رواه أحمد
٢٢ رواه الترمذي
٢٣ رواه الترمذي

الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ"[٢٤]

ثُمّ اختُتِمَتْ الآيةُ الكريمةُ بقولهِ تعَالى: [**وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ**]. وهُنا إفصاحٌ عنْ لوثةِ الكُفرِ لدَى هؤُلاء، وفي العَينِ ذاتهِ إرشادٌ إلى عِلاجِ هذهِ اللّوثةِ. فما يقِفُ حائلاً بينهُم وبينَ إحسانِ العَمَلِ، هُو عدَمُ إيمانِهم بالبَعثِ. وكونهم لا يُؤمِنونَ أنَّهُم [**مَبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ**]. فهُم منْ مُنطلقِ هذا اللا إيمَان يستهزِؤونَ بالمُحسنِين في أعمالِهم، لأنَّهُم يعتَقدُونَ بأنّ كُلّ ذاكَ الإحسَانَ يذهبُ هبَاءً، وأنَّهُم لنْ يُثابوا بشيءٍ [**مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ**]. على قاعدَةِ الكُفرِ الكامنِ في مُعتَقَدِهم. فعندَما يَسمعُونَ آياتِ القرآنِ الّتي تُذكّرُ بالثّوابِ والعِقاب، يقُولونَ: [**إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ**].

فالإرشادُ في الآيةِ الكَريمة، هو أنّ الإنسانَ كلَّما آمَنَ بالثّوابِ والعِقابِ أكثَر، كُلَّما أحسنَ عَملَهُ أكثَر، وكُلّما أنكرَ الثّوابَ والعِقابَ أكثر، أساءَ في عَملِهِ أكثَر.

البابُ الثّامن : عاقِبةُ الإصرارِ على الاستهزاءِ بآياتِ الله

[٨] [وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ]

في خاتِمَةِ الآيةِ السّابِقة: [**وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ**]. والآنَ في الاستئنَافِ: [**وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ**].وهذهِ هي رَحمةُ اللهِ، فلا يُعاقِبُ الإنسانَ فورَ ارتكابِ التَجاوزِ، كما القانُون الّذي يوقِعُ العِقابَ فورَ ارتكابِ التَجاوزِ، مَهما عبَّرَ المُتجاوزُ عنْ نَدَمِه، وتعهّدِهِ بعدَمِ تكرَارِ التّجاوُزِ، وحتّى لو فرَّ وتوارَى عن الأنظَارِ، فيتمّ البَحثُ عنهُ لينالَ العِقابَ. لكنّ اللهَ تَعالى شأنُهُ يُمهِلُ الإنسانَ المُتجاوزَ على حُدودِه، حتّى يتُوبَ فيعفيهِ منَ العِقابِ. لكنّ البَعضَ يُسيئ فَهمَ هذا الإمهالِ، فيتمادَى أكثَر في انتهاكِ حُدودِ اللهِ، وبذلكَ يزدادُ كُفراً إلى درجةٍ يَقولُ فيها: [**مَا يَحْبِسُهُ**]. أيْ إذا كانَ العِقابُ مَوجوداً، كما تقُولونَ: فها أنا أرتَكِبُ هذا التّجاوزَ على حُدودِ اللهِ، فلماذا لا يُعاقِبُنِي. ومِنْ هُنا يُنكِرونَ وجودَ الله، وبالتّالي يُنكرونَ وجودَ الثّوابِ

٢٤ صحيح مسلم

والعِقاب. وعلى ذلكَ لا يَرتدِعُونَ عن الانتهَاكاتِ. وهذهِ نتيجةٌ طبيعيّةٌ تَنجُمُ عنْ سُوءِ فَهمِ مسألةِ الإمْهال.

إذَنْ: [**وَلَئِنْ أَخَّرْنَا**] أمهلنا [**عَنْهُمُ الْعَذَابَ**] الّذي يستَحِقّوهُ جَرّاءَ الآثامِ الّتي اقتَرَفُوها: [**إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ**]. رَحمةً بِهم لعلَّهُم يَتَّعِظوا ويَتَراجَعُوا، فَنعفِيهُم [**الْعَذَابَ**] المُترَتِّبَ عَليهم: [**لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ**]. وهذا كَقولِهم: [**اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـذَا**] - القرآن - [**هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**]الأنفال٣٢. لكَم اللهُ يترُكُ إمهالَهُ مَفتوحاً لِعبادِه، وإنْ كانَ البَعضُ لا يَتَّعِظ، بلْ يزدادُ تمادياً في الانتِهاكاتِ، إلاَّ أنَّ البَعض أيضاً يَتَّعِظُ مِن هذهِ الفُرَصِ الثّمينةِ الّتِي يُتيحُها اللهُ عزّ وجلّ برَحمتِه للإنسانِ المُذنِبِ. وإلاَّ: [**وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**]يونس١١. ولكنْ هذا لا يعنِي بأنّ الإمهالَ لا أجَلَ لهُ، بَلْ: [**لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ**]الرعد٣٨. فيأتي يومٌ ينتهِي فيهِ الإمهَالُ، ولنْ تكُونَ ثمّة ثانيةً واحدةً منَ الإمهَالِ، وفي تلكَ اللّحظاتِ الأخِيرة، لمْ تعُد التّوبةُ تَنفَع. مثل أنْ يقعَ عليهِ شخصٌ بغتةً ويُطلقَ عليهِ الرّصاصَ، فيتوبُ وهو يلفِظُ أنفاسَهُ الأخِيرة، أو بَغتةً تَغرقُ السّفينةُ الّتي هو فيها، أو فِي حادثِ سَيرٍ مُروِّع. فَيتُوبُ مع أنفاسِهِ الأخِيرةِ، كما حَصلَ مع فِرعَونِ الّذي لمْ يَقبلْ اللهُ منهُ التّوبةَ في تِلكَ اللّحظاتِ الأخيرَةِ: [**حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**]يونس٩٠. فكانَ الجَوابُ: [**آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**] يونس٩١. فعَلى الإنسانِ أنْ يغتَنِمَ فُرَصَ الإمْهالِ الّتي يُتيحُها لهُ اللهُ تباركَ وتَعالى، ويتُوبَ، لأنّهُ يأتِي وقتٌ لا تَنفعُه فيهِ التّوبةُ لو تابَ: [**وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً**]النساء١٨. وعِندَ التّوبةِ فإنّ الإنسانَ سيكُفّ عنْ تَماديهِ، ولنْ يقُولَ: [**مَا يَحْبِسُهُ**]. بلْ يشكرُ اللهَ على عَدمِ إيقاعِ العِقابِ فورَ اقترافِ الإثْمِ، ففِي الإمهالِ فُسحةٌ للإصْلاحِ، وهكذا يُحسِنُ فَهمَ الإمهالِ ويتَّعِظُ به. لأنّهُ يُدركُ بأنّهُ ليسَ إمهالاً مفتُوحاً، بلْ هو إمهالٌ مؤقّتٌ رَحمةً منَ اللهِ تَعالى لإتاحَةِ فُرَصِ الإستِغفَارِ والتّوبةِ: [**فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**]المائدة٣٩.

إذَنْ: [**وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ**]. بيانٌ بأنّ الإمهالَ يبقَى مُتاحاً برَحمةِ اللهِ تَعالى لكُلّ [**أُمَّةٍ**] عبرَ الزّمنِ، وليسَ مُقتَصِراً على[**أُمَّةٍ**] واحدَةٍ، أو في زَمنٍ واحدٍ. والأممُ تتحاقَبُ عبرَ سَيرُورَةِ الزّمَن، وكذلكَ يبقَى الإمهالُ مُستمرّاً للنّاسِ جَميعاً. فلا يُوجَدُ إنسانٌ قَطّ لمْ يستُرْهُ اللهُ في تَجاوُزاتٍ ارتَكَبها، ولا يُوجَد إنسانٌ قَطّ لمْ يُنَجّه اللهُ منْ أخطارٍ كانَتْ مُحدِقَةً بهِ. وإنْ كنتَ تعرفُ بعضَها، فإنّ ما لا تَعرفهُ لهُوَ أكثَر. فَهي مُهَلٌ منَ اللهِ عزّ وجلّ للتّراجُعِ عن الفُجور، وليسَ للاستمرارِ فِيه. لذلكَ: [**مَّعْدُودَةٍ**]. فهي ليسَتْ دائمةً ومفتوحةً لك، بلْ: [**مَّعْدُودَةٍ**].

عن أنس بن مالك عن النّبي صلّى اللهُ عليهِ وسلّم: "كلُّ ابنِ آدمَ خطَّاءٌ، وخيرُ الخطَّائينَ التَّوَّابونَ"[٢٥]. فالتّوبةُ خَيرٌ لك، والإمْهالُ يُفسِحُ لكَ التّوبة بعدَ ارتكابِكَ الأخطاء، فتكُون "خيرُ الخطّائين" من خلالِ توبتِكَ وعدمِ إصرارِكَ على الأخْطَاء.

عن أَنَس بْن مَالِك قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي: غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً"[٢٦].

[**أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ**]. هذا جوابٌ على قَولِ المُصرّينَ على الأخطاءِ، وهُم يقولونَ: [**مَا يَحْبِسُهُ**]. وهو تاكيدٌ بأنّ الإمهالَ مؤقّتٌ ومعدودٌ. فهذا العذابُ يُرفَعُ مِن خِلالِ التّوبَة، لكِنّهُ يَقَعُ عليهم مَع العِنادِ والإصرارِ على انتهاكِ حُدودِ اللهِ، والاستِهزاءِ بآياتِه. وعِندَها: [**فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ**]الطور٤٥.

فـ: [**أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ**]. بيانٌ بأنّ العِقابَ [**يَأْتِيهِمْ**]. ذاتَ يوم، إذا لبِثُوا في عِنادِهم واستِهزائهم، ولا يكونُ [**مَصْرُوفاً عَنْهُمْ**].

إذن: تُبيِّنُ الآيةُ التّفصيليّةُ الكَريمة، بأنّ العِقابَ يبقى مُثبَّتاً على المُذنِب، ولا يُصرَفُ عنهُ سِوَى بالتّوبَة. فمادامَ مُصِرّاً على الانتِهاكاتِ، ومُستهزِئاً بآياتِ اللهِ، دُونَ أنْ يَستغفِرَ اللهَ ويتوبَ إليهِ، لا بُدّ لهُ أنْ يلقَى العِقابَ في الدّنيا قبلَ الآخِرة. فجاءَتْ خاتِمةُ الآية: [**وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**].

فا لـ: [**بِهِ**]. هو الّذي يُحِيقُ [**بِهِم**]. إذَنْ: [**بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ**]. ماذا؟

[**يَسْتَهْزِئُونَ**]. ما هُو فَحوى الـ: [**بِهِ**]؟. هو قولُهم استِهزاءً عندما كانَ اللهُ يُمهِلهُم ويؤخّرُ عليهم العَذاب: [**مَا يَحْبِسُهُ**].

الآن: انتهتْ المُهَلُ الّتي كانَتْ مَعدُودةً لهُم: [**وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**]. [**فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**]النحل٣٤. نظيرُ استِمرارِهم في المَعاصِي، وإصرارِهم على الاستِهزاءِ بالقُرآن: [**وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ**]. لِنَنظُر إلى البَيان: [**فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً*اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**]فاطر ٤٢، ٤٣. فهذهِ سُنّةٌ ثابتةٌ منَ اللهِ عزّ وجلّ: [**فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**].

فكَما أنّ الإنسانَ يُثابُ بِعَمَلِه الصّالح، فإنَّهُ يُجازَى بِعَمَلِهِ الفاسِد، فالّذي يعملُ صالِحاً، يُصلِحهُ الصّلاحُ، والّذي يعمَلُ فاسِداً، يُفسِدهُ الفَسادُ. والإنسانُ يُحاقُ

٢٥ أخرجه الترمذي
٢٦ رواه الترمذي

بعَمَلِهِ فحسبْ، ولا أحدَ يُحاقُ بعَمَلِ أحدٍ. الأمرُ الآخرُ الهامّ للغايةِ الّذي تُفصِحُ عنهُ الآيةُ الكريمةُ أنّ الإنسانَ يُعاقَبُ بجنسِ الإثْمِ الّذي يرتكِبهُ. فالّذي يكذِبُ، يُكذَبُ عليه، والّذي يَسرقُ، يُسرَقُ مِنهُ، والّذي يوشِي، يوشَى بهِ، والّذي يَفتِنُ، يُفتَنُ بهِ، والّذي يُنافِقُ، يُنافَقُ عليه، والّذي يَحتَكِرُ، يُحتَكَر، والّذي يُعَذِّبُ، يُعذَّبُ. ونَظيرُ ذلك، فإنّ الّذي يَعمَلُ صالِحاً، يُثابُ بِجِنسِ عَمَلِه الصّالِح، فالعَفيفُ يُثابُ بِعَفافِه، والأمِينُ يُثابُ بأمانَتِه، والصّادقُ يُثابُ بِصِدقِه، والّذي يُميطُ الأذَى عن دُروبِ النّاس، يُماطُ الأذى عَنْ دربِه، الّذي يُحافِظُ على أعراضِ النّاسِ، يُحافَظُ على عِرضِه. وهذا يكونُ في الدّنيا كما يكونُ في الآخِرَة، فالجنّةُ درَجاتٌ، كما أنّ جهنَّم دَركات، وللجنّةِ أبوابٌ لا يدخلُها إلاّ أصحابُ أعمالٍ صالحَةٍ بعينها دُونَ غيرهم وَفقَ أجناسِ أعمالِهم، كما في جهنَّم درَكات لا يدخلُها إلاّ أصحابُ آثامٍ بعينِها دُونَ غيرهم بِحَسب أجناسِ آثامِهم. [**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**]١٠٦، ١٠٧. ولا يَستوِي الّذي يَبْيَضُّ وجهُهُ بالّذي يَسْوَدّ وجهُه.

فالآيةُ الكريمة تُرشِدُ الإنسانَ إلى تَفادِي هذا الحيقِ من خِلالِ النّدَمِ على ما اقتَرفَ منْ آثامٍ مَهما كانَتْ هذهِ الآثامُ كبيرةً وكَثِيرة. فلا إثْم قَطّ يكونُ أكبر مِن رَحمةِ اللهِ الّتي تتّسِعُ لِكُلّ إثمٍ يبدُرُ منَ الإنسانِ، عندَ الاستِغفارِ والتّوبةِ.

[**إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَـئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**]البقرة١٦٠.

[**إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً**]النساء١٤٦.

الهوامش :

صحيح البخاري

جامع الترمذي

صحيح مسلم

مسند الامام أحمد

جامع ابن ماجه